سعوديون
في أميركا

سعوديون
في أميركا

تركي الدخيل

العبيكان
Obeikan

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الدخيل، تركي عبدالله عبدالعزيز

سعوديون في أمريكا./ تركي عبدالله عبدالعزيز الدخيل -ط٣ .

الرياض، ١٤٢٩هـ

١٨٦ص؛ ١٤ × ٢١سم

ردمك: ١-٤١٥-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

١- الولايات المتحدة الأمريكية - وصف ورحلات

٢- أدب الرحلات أ- العنوان

ديوي ٩١٧,٣٠٤ ٦١٧ /١٤٢٩

رقم الإيداع: ٦١٧ /١٤٢٩

ردمك: ١-٤١٥-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الثالثة

١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر: العبيكان للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ /٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ /٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

موقع المؤلف على الإنترنت
www.turkid.net

الإيميل t@turkid.net

فكرة الغلاف وتصميمه هدية مشكورة للمؤلف
من الشاب السعودي فيصل المغلوث

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المؤلف في سطور	9
الإهداء	11
استهلال	13
خيارات الغربة	23
مجلة (ماجد) والمدن الصغيرة	27
وصول وتعثر	33
احتقار الحافلات	41
هبَّتِ الريحُ	47
الثمامة.. في أميركا	53
محمد عبده.. وسلمان العودة	63
الدهناء تحتضن (الهولووين)	69
الثقلاء يملؤون الأرجاء	75
الطعام في بلاد العم سام	81
إدمان... وهروب من الجدران	87
الأسمر الدجال	93
فحولة شرقية في بلاد الغرب	101

الموضوع	الصفحة
الكبسة وسيلة التشبيك	107
البدويان	113
هدف يضيع في الزحام	119
أحداث سبتمبر: البلاي ستيشن والجواز السعودي	127
يوم أصبح السعوديون هنوداً ولا تينيين	133
أزمتنا مع الأميركيين في السعودية	141
فهرنهايت 9/11	147
الغباء الأميركي	153
أميركا التي أحببت	157
بعيداً عن الزيف	163
اللهم دمر أميركا	167
وحرقنا العلم الأميركي	175
أميركا هي السبب	181

المؤلف في سطور

- تركي بن عبدالله بن عبدالعزيز الدخيل
- سعودي، من مواليد الرياض في 1973/7/2، متزوج وأب لثلاثة أطفال: عبدالله، مي، وعبدالعزيز.
- أصدر في مارس (آذار) 2006 كتابه الأول "ذكريات سمين سابق"، عن مكتبة دار العبيكان للنشر والتوزيع.
- يُعد ويقدم برنامجاً حوارياً أسبوعياً في قناة العربية بعنوان: (إضاءات)، منذ العام 2002 عبر إذاعة بانوراما وmbc-FM، ومنذ 2004 تلفزيونياً.
- له زاوية شبه يومية في صحيفة (الرياض)، ويكتب بانتظام في العديد من الصحف والمجلات العربية.
- أسهم في تأسيس قناة "العربية"، وموقع "إيلاف" الإلكتروني الإخباري، وموقع "العربية. نت".
- رئيس ومؤسس مركز المسبار للدراسات والبحوث بدولة الإمارات العربية المتحدة - دبي.

الإهداء

إلى كريستوفر كولومبس...
لولاه، لما كانت شاغلة الناس، المسماة أميركا![*]

(*) اكتشف كولومبس (1451 - 1506م) العالم الجديد عام 1498م أي بعد سقوط غرناطة بستة أعوام فقط، بينما اكتشف جزر الكاريبي في نفس عام سقوطها، ويذكر أن أول الحروب مع الهنود الحمر كانت في عام 1511م . مع قبيلة الباوهاتان كبرى قبائل الهنود الحمر، أي بعد رحيل كولومبس بثلاث عشرة سنة كما أن هناك أدلة كثيرة تذكرها كثير من الحضارات على أنها اكتشفت أميركا قبله مثل "الهنود والصينيين والأستراليين الأصليين والعرب وغيرهم ، ولكن لم تكن أميركا فردوساً أرضياً كما تصورها المهاجرون البيض الأوائل، وتشغل العالم منذ اكتشافها إلا بيد كولومبس فقط. "راجع في ذلك كتاب هاينكه رودهوف "معذرة كولومبس لست أول من اكتشف أميركا" الذي ترجمه الدكتور حسن عمران ط عام 2001" وأيضاً:

Sorenson, John L. and Johannessen, Carl L. (2006) "Biological Evidence for Pre-Columbian Transoceanic Voyages." In: Contact and Exchange in the Ancient World. Ed. Victor H. Mair. University of Hawai'i Press

استهلال

شكّل أدب الرحلات على مرّ الزمن، لا سيما عند العرب(*)، جنساً شائقاً من أجناس الكتابة بالنسبة للمتلقي، ودعا الكثير من الفقهاء والأدباء للرحلة والسفر للاكتشاف، يقول الإمام الشافعي في ذلك:

سافرْ تَجِدْ عِوَضاً عَمَّنْ تُفَارِقُهُ

وَانْصَبْ فإنَّ لَذِيذَ العيشِ في النَّصَبِ

(*) من أدب الرحالة العرب رحلة ابن بطوطة "ت 703 هـ" صاحب الرحلات المشهورة، والذي احتفلت اليونسكو بمرور سبعمائة عام على وفاته سنة 2004 وكذلك عبد اللطيف البغدادي " 557 - 629هـ" في رحلته لمصر، والبيروني في رحلته للهند، والحسن بن علي المراكشي "ت 660هـ"، والأندلسي أبو بكر الطرطوشي "451-520هـ" أول عربي سجل ملاحظاته على المجتمع الغربي حيث زار ألمانيا وفرنسا، ومنهم في العصر الحديث رحلة رفاعة الطهطاوي "ت1873" إلى باريس ورحلة حسن توفيق العدل "ت1904" إلى ألمانيا وسويسرا "رسائل البشري في الرحلة إلى ألمانيا وسويسرا"، و"الرحلة البرلينية". وأحمد فارس الشدياق "ت1878" الواسطة في معرفة أحوال مالطة" أو "كشف المخبا في معرفة أحوال أوربا"، وسعد عياد الطنطاوي 1861 إلى روسيا، ويذكر أن الرحلة لبلاد الغرب كانت دافعاً نحو التطوير والتحديث، فمن فرنسا أتى الطهطاوي بفكرة الدستور والوطنية، وجاء العدل بفكرة البرلمان والتربية البدنية والرياضية!

ومن السعوديين المعاصرين: الدكتور غازي القصيبي في كتابه "سائح في كاليفورنيا"، والدكتور عبد الله الغذامي في كتابه: "رحلة إلى جمهورية النظرية" عن رحلته إلى الولايات المتحدة.

إنِّـي رأيتُ وُقُـــوفَ المـاءِ يُفْـــسِـــدُهُ

إنْ سَـــالَ طَابَ وإنْ لم يَجْـــرِ لـم يَطِبِ

والشـــمسُ لَوْ وَقَـــفَتْ في الْفُلْكِ دائمـــةً

لَمَلَّهَـــا النـاسُ مِنْ عَـــجَمٍ ومِن عُـــرْبِ

ويَنـدُرُ أن يسـافر المرء إلى خـارج جغـرافيـته دون أن يخطر بباله نقل تجربتـه شِـفَاهاً، أو على الورق، شـغفاً بها.

إن نقل التجارب بالحكاية أي مشافهة، هو أمر مستفيض لا تحتاج لاكتشافه إلى أكثر من أن تضع يدك على أقرب شخص إليك متأملاً في أحاديثه وقصصه.

بيد أن شعوباً غير عربية تحفل بالثقافة بشكل مختلف عن ثقافة السماع التي نجيدها نحن العرب، بنقل التجربة كتابة، فتدوين التجارب كتابياً، حتى لو كانت شخصية، يمارسه عامة الناس في الغرب، من خلال يومياتهم ومذكراتهم الشخصية، ولو لم تتح لهم فرصة نشر هذه الكتابات. والمتأمل في الثقافتين يتبين له الفارق بين الثقافة المحكية والمكتوبة!

لا تتمثل التجربة بمجرد المشاهدات العابرة والتنقلات السياحية، التي لا تتعمق في حفر طُرق معرفية جديدة، وترسيخ معانٍ مغايرة عن مجتمع ما، كنتَ تَوَدُ اكتشافه بغير تلك الصورة

التي عرفتها عنه، أو التي قدم نفسه بها، أو قدمه بها آخرون، بل بكل متعة الكشف الذاتي لما يصادفك أنت وحدك، وربما ما تصادفه أنت وحده!

إن للمشاهدة متعة، وللتأمل قيمة، إذا أحسنّا ممارستهما.

هذا ما حاولت رصده في هذا الكتاب.

قد يشعر الكثيرون، بأن ليس ثمة فارق بين كُتّاب كُثر، يكتبون عن تجربة ما في الولايات المتحدة، وربما فاتهم أن وجه الاختلاف يكمن في أن كل واحد يكتب عن تجربته في جغرافية أخرى، وفقاً لوعيه ومخيّلته وتجاربه السابقة.

لاشك أن الخلفية الاجتماعية والثقافية، وما يتشكل من هاتين الخلفيتين من وعي، هو الذي يُمَكِنُ المرء من التقاط شيء وإغفال شيء آخر.

هل نُمارس الانتقائية بذلك؟!

الجواب: بالتأكيد، نعم!

لكن الانتقائية، إذا لم تكن متعمدة ومقصودة، فهي تصرف بَدهيّ ينساق مع طبائع الأشياء.

بصمتي وزاويتي

أعني أن كل تجربة سفر هي بصمة مغايرة تماماً لغيرها،

وهذه هي بصمتي أنا، تلك التي عشتها في هذه الفترة، ما بين 2000- 2002، وَدَوَّنتُ معظمها في الفترة ذاتها(*).

لو قمتُ بكتابة هذه التجربة بعد عشر سنوات، وليس في هذه الحقبة الحالية، لجاء تسجيل الملاحظات بشكل مختلف -بطبيعة الحال- فـ"الإنسان لا يسبح في ماء النهر مرتين"، مثلما تفلسف هيرقليطس الإغريقي في القرن السادس قبل الميلاد، لأن النهر في جريان مستمر، والمياه تتبدل في كل لحظة، كذلك الزمن في جريان دائم، من لحظة إلى أخرى، ومن يوم إلى آخر، ولا تمر اللحظات نفسها بالإنسان، فانطباعاته عنها تتطبع بلحظته، وبالتالي تختلف ملاحظاته باختلاف تجاربه ورؤاه، لاختلاف خبراته وتراكماته مع مرور الزمن.

وهذا لعمري، مصدر ثَراءٍ تجاربيٍ، ومعرفي عظيم، لو تنبهنا له، وأرخيناه سمعاً، وأصغيناه قلباً.

أُشير أيضاً إلى أن ما سَطّرته هنا، هي مشاهداتي، على خلفية الاحتكاك المباشر بالمجتمعات العربية والمسلمة، على وجه الخصوص في الولايات المتحدة، وما أكتبه حول مجتمعات وجنسيات مغايرة، هو في سياق الحديث عن المجتمعات الأولى،

(*) بعض موضوعات الكتاب وفصوله سبق نشرها في مقالات صحافية، لكني عَدّلتُ صياغة بعضها لتناسب نسق الكتاب، وبخاصة ما يتعلق بالظرف الزماني.

وليس قصداً للحديث عن الأخيرة بذاتها، إلا لمواربة أو مقاربة أو حتى مقارنة.

ثمة أسئلة تتقدح في ذهني، وقد تتبادر إلى ذهن القارئ: هل كتبتُ عن هذه المجتمعات، وتلك الجنسيات، بشكل نقدي؟! أم أنها مجرد ملاحظات؟! وهل أسرد مشاهدات وصوراً رأيتها بأم عيني؟ ومازالت حاضرة أمامي؟ وهل نجحتُ في نقل صورة حقيقية عن المساوئ والمحاسن؟!

أصدُقكم القول، إنني لا أدري تماماً... ولا يعنيني كثيراً أن أدري!

سُئلتُ بعد إصداري كتابي: "ذكريات سمين سابق"، أسئلة مقاربة للأسئلة السابقة، فأجبت بأنني لم أكترث بالقوالب، قدر اهتمامي بالبوح عند الكتابة.

كيف سيُصنف هذا البوح؟! أهو انضمام لثنائية النحافة والبدانة، أم هو دوران حولها، دون الولوج في تفاصيلها؟!

أحسبُ أن هذا ليس شأني!

كتبتُ بقلم أو بلوحة مفاتيح! ولا أدري تحت أي قالب يمكن تصنيف ما كتبت؟!

بين الإنسانية... والجنسية!

حاولت التفاعل هنا وهناك مع الإنسان. صحيح أنه بمفهومه العام غير خاضع لجنسية، وأنا هنا أعنون كتابي بجنسية

مجموعة:"سعوديون"، لكن التصنيفات بناء على الجنسية أنماط صارت تتماهى مع حياتنا.

ما أعرفه هو أنني كتبتُ وكفى.

ويأتي الحديث عن السعوديين من باب استخدام الغالب، مع أن في هذه المشاهدات حديث عن جنسيات أخرى، وبخاصة الخليجية، حيث يتقارب الخليجيون في عاداتهم الاجتماعية والتربوية في أغلب الأحوال.

كذلك ولكثرة أعداد الطلبة الخليجيين، مقارنة بجنسيات عربية أخرى في أروقة الجامعات الأميركية، بالنظر إلى أن معظم حكومات دول مجلس التعاون الخليجي تبتعث العديد من مواطنيها الطلبة لإكمال دراساتهم هناك.

وأحاول في هذه السطور أن أرسم بعض ملامح الشخصيات التي قابلتها، ولا شك أني أكتب من خلال مِنظاري أنا لهذه الشخصيات، فلو كتبَ غيري ربَّما تباين التصوير بشكل كبير.

سأقول أيضاً: إنني ربما أصبت في تصويري وربما أخطأت، وعزائي أني لم أتعمد الخطأ -إن وقع- وفي الأثر:"رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه".

الأكيد أنني أرى الأشياء من زاويتي، والنِسبية حاضرة هنا بقوة، ومختلفة من شخص إلى آخر.

لكني لو استسلمتُ وأحجمتُ عن الكتابة، تحت ذريعة ما يُحتمل أن أقع فيه من خطأ، لما سَطَّرت حرفاً واحداً، ولما كتبت كلمة، بل لو تقيد كل كاتب بهذا المنهج في التفكير لما أنجز كاتبٌ مشروعاً. فما لا يُدرك كُله، لا يُترك جُله، وحسبُكَ من القلادة ما أحاط بالعنق، إن كان ثمة... قلادة.

هذه هي بضاعتي المتواضعة بين أيديكم، أردت بها الحديث عن تجربة مثيرة لي على الأقل، وربما بعد أن كثَّفت السعودية بعثاتها إلى الولايات المتحدة الأميركية في العام 2006، يجدُ بعض الطلبة الجدد، هنا، شيئاً يُمتعهم، أو ينفعهم، أو يجعلهم يتأملون ويفكرون: كيف يجب أن يقفوا، وأين يريدون أن يكونوا؟!

أرجو أن يجد القارئ في هذا الكتاب معلومة، أو متعة، أو حتى بسمة، وتحقق واحدة من هذه يكفيني زهواً وسعادة بهذه السطور.

وبعد...

فهذا جهدُ المقل، وعذري ما عهدته في القارئ الكريم من تفهم وتقدير، والله يحفظكم.

تركي الدخيل

أبو ظبي، الأربعاء، الثاني من ديسمبر (كانون الأول) 2006م

خيارات الغربة

تبدو الخيارات في الغربة أقل توافراً منها في الوطن، وبالذات لجهة معرفة الناس؛ ذلك لأنك في وطنك تأخذ مداك الطبيعي في النشأة بين الناس والتعرف عليهم، ثم تختار مَنْ يتناسب مع طباعك عسى أن يكون صديقاً.

أما في الغربة، وبخاصة في البدايات، فأنت لا تختار دائماً...

وإذا كنت محظوظاً، فأنت تجد خياراً وحيداً، فإما أن تقبله على عِلاّته، وإما أن تختار الوحدة.

قد تُجّرب الوحدة مرة أو اثنتين، لكنك ستكتشف أنه من الصعب الجمع بين ألمين قاهرين: ألم الغربة، وألم الوحدة!

لكن؛ مع ذلك فإن في الغربة ميزة عظيمة -على مثالب قلة الخيارات- هي إظهار المعادن... فالغربة تحرقها، تُجَمِّرها، فيزداد لمعان الذهب، ويبهت ما سواه، "فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض".

ملمح ذكوري

أحسبُ أن الآباء الأوائل، من أجل ذلك قالوا: إنك لا تعرف الرجال إلا إذا رافقتهم في سفر.

ثمة ملمح ذُكوري هنا، وهو يبدو حاضراً، مثل معالم كثيرة في ثقافتنا.

الصحيح أنك لا تكتشف معادن البشر، ذكوراً أو إناثاً، شيباً أو شباباً، مثلما يحصل ذلك أثناء السفر.

فالأمر إذن ليس مقتصراً على الرجال فقط!

البشرُ هنا، هم المعادل الموضوعي للإنسانية؛ أعظم الأشياء في هذه الحياة... إن شاؤوا هم أن يكونوا كذلك.

أقول ذلك لأن المرء عندما يأتي إلى مجتمع جديد، فإنه في الغالب يكون منكفئاً على ذاته في البداية، ويحتاج إلى طرف آخر ليبادره ويذيب جليد خجله، وإلا فمعظم المجتمعات الغربية - وبخاصة في الولايات المتحدة- أكثر انفتاحاً من المجتمعات العربية لإنشاء علاقات سطحية مبدئياً، الفارق هنا أن الاستعداد للذهاب بالعلاقة بعيداً وعميقاً أصعب في الغرب منه في مجتمعاتنا.

إذاً هناك مجتمع منفتح لعلاقات سطحية، وتحتاج العلاقة العميقة إلى جهد أكبر، والعكس في المجتمع العربي.

مجلة "ماجد"...
والمدن الصغيرة

عندما قدمت إلى بلدتي الأميركية الصغيرة الحالمة، لم أكن أعرف فيها أي عربي.

الحقُ أن ذلك كان أحد أسباب اختيار "يوجين" EUGENE المدينة الصغيرة، أو القرية الجامعية، الواقعة في طرف أميركا الشمالي الغربي، مكاناً لإقامتي في الولايات المتحدة، للتعلم وخوض غمار التجربة الحياتية.

وُلدتُ وعشتُ معظم حياتي في الرياض، عاصمة المملكة العربية السعودية، أكبر مدن البلاد في المساحة وعدد السكان.

بل إن الرياض هي أكبر مدينة في الشرق الأوسط من حيث المساحة، وهي ثالث أو رابع أكبر مدينة في العالم حجماً واتساعاً، ولا أبالغ عندما أقول إن الانتقال من شرقها إلى غربها أو من شمالها إلى جنوبها شبيه بالسفر، لأنك تقطع مسافة يمكنك فيها أن تقصر صلاتك![*].

كما زرتُ كثيراً مدناً مزدحمة تغص بالبشر وتكتض بالازدحام

(*) مساحة مدينة الرياض 5384كلم^2، والمسافة بين شرقها وغربها من المرحلة الثانية من النطاق العمراني حوالى 51 كلم، فيما المساحة بين أبعد نقطتين من الشمال إلى الجنوب من المرحلة الثانية من النطاق العمراني حوالي 74 كلم، وهو ما يجوز قصر الصلاة في سفر مثله! (الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض، وحدة إدارة المعلومات في قسم الدراسات والبحوث، في معلومة إيميلية من الأستاذ محمد بن سعيد الأحمري).

والتلوث، على فارق بينهما، كالقاهرة، والدار البيضاء، ولندن، ونيويورك.

وأذكر أني عندما كنتُ صبياً، كنت أدمن على قراءة مجلة "ماجد" للأطفال، الصادرة من أبوظبي. وكم انتظرت وصول العدد إلى الرياض بفارغ الصبر. كانت عادة سائغة لي الانتظار عند البائع ساعات، حتى وصول موزع المجلة.

كان إقبال سيارة التوزيع إلى الدكان القريب من منزلنا، بمثابة بُشرى تُزف لي، فقد اقترب موعد الظفر بمجلتي الأثيرة.

كنتُ أقرأ المجلة من الغلاف إلى الغلاف، ولم أتخلف عن اقتناء عدد واحد منها، بل لم أكن أتخلى عن عدد اقتنيته من مجلة "ماجد"، إلا تحت ضغوط متوالية من والدتي -حفظها الله- من أجل إتاحة مساحة للتحرك في غرفتي.

الباب... المُفضّل

كانت أبواب المجلة تشكل لي زاداً أقتات عليه طيلة أيام الأسبوع، لكن أحد أبوابها طالما استوقفني كثيراً، ذلكم هو باب "هواة التعارف".

لم أكن مأخوذاً بفكرة التعارف لذاتها، بل كنت أتأمل الوجوه في الصور المنشورة، وأحاول تخيل حياة كل شخص: كيف يعيش؟ وبماذا يفكر؟ وأين يسكن؟ وكيف ومتى ينام؟

ثم تنتهي مسرحية التخيل الشخصية تلك، بأن أحاول أن أربط بين ملامح الصورة والأماكن التي أتخيلها للمدن التي يقطنها المتعارفون.

تابعتُ -كثيراً- سعوديين يعيشون في مدن صغيرة، وعبثاً حاولت مخيلتي الطفولية، أن تلامس متعة في حياتهم!

لذلك كنت أقول بشكل سافر في داخلي: كيف يمكن العيش في مكان غير المدن السعودية الثلاث الكبرى: الرياض، جدة، والدمام؟!

إنها صورٌ نمطية جاهزة، تنطبق على ما يمكن أن أسميه التصور الذهني الوحيد للمتعة.

إن إشكالية الصور النمطية، والتصور الوحيد للمتعة، أنها تقيد المطلق.

إن الإنسان المطلق في هذه الحياة يحاول ابتكار ما يحتاج، وحول الاحتياجات يتلمس مساحات من المتعة على ضفاف حياته البسيطة... لو كنتُ أعقل ذلك!

عندما اخترت مدينة يوجين EUGENE في ولاية أوريجن OREGON بعد مشاورات وسِجالات، وأخذ ورد، كنتُ في السابعة والعشرين من عمري حينها، وخشيتُ من استيقاظ ذاكرة الطفولة حول المدن الصغيرة، فيؤثر ذلك في تقبلي للمكان، وبالتالي ينعكس سلباً على تجربتي الجديدة.

لذة... الاكتشاف!

بيد أن النتيجة كانت مختلفة تماماً، فالمدينة التي لا يستغرق طي أطول شوارعها أكثر من بضع دقائق، كانت شاسعة بالنسبة لي، ليس في مساحتها بل في قدرتها على احتوائي، أنا القادم من المدن الكبرى الصاخبة، التي تدلع لسانها في وجه الصغار، وذوي الاهتمامات البسيطة...

تلك المدن الكفيلة بأن تضيع فيها التفاصيل البسيطة، ولو كانت جميلة، وسط هدير العربات، وتحت أقدام البشر، واختلاط الأحلام بعوادم السيارات.

هنا درس جديد، تعرفت عليه عملياً، فالأحكام المعلبة - دون تجربة- قاصرة بليدة بعيدة عن الحقيقة.

ينبغي بعدها، أن أحاول ألا أُصدر حكماً قبل التجربة العملية.

ثمة شيء آخر بِتُ أجد فيه متعة لم أكن أعرفها قبلاً...

إنها متعة اكتشاف الأشياء الجديدة...

حقاً... لا شيء كالتجربة، يُعلّم المرء.

وصول.. وتعثر!

منذ وصولي "يوجين" أقمت في فندق صغير يطلق عليه دبل تري (Double Tree)، أي الشجرة المزدوجة، وهو فندق وديع حالم، اختاره لي الصديق صلاح الهطلاني، وبالفعل استقر بي المقام في هذا النُزل أسبوعين، أنا وزوجتي وطفليّ الصغيرين.

صلاح، الموظف آنذاك في القنصلية السعودية في لوس أنجلوس، كان عرَّاب رحلتي الرئيس، فهو اختار الفندق واقترح المدينة والجامعة، وقد تفضل عليَّ بأفضال جمة لا تُنسى. لعل أهمها أنه كان على رأس تحركاتي مُرشداً ومعلماً وموجهاً، بمحبة وبذل وعطاء يندر أن تتوافر في شخص، ما شكل لي تهيئة رائعة لأن أخوض إحدى أهم تجاربي وأنا معتمد على الله أولاً ثم على جبل هو ابن الهطلاني.

شنبٌ كث... رجل فظ!

مطار البلدة الصغيرة، كان آخر نقطة في رحلة تكونت من أربع محطات في طريق سفري: الرياض، لندن، سان فرانسيسكو، ثم أخيراً... يوجين.

وجدتُ سائق الفندق بانتظارنا في المطار.

مازلت أذكر أنه كان يرتدي شورتاً وتي شيرتاً أخضرين، وأن شنبه الكث الأشقر أبرز معالم وجهه، وقد أوحى لي الشنب الطويل الكث بأن الرجل سيكون فظاً، ولا أدري لماذا توقعت ذلك، لكن من

فضل الله علي، أن باء توقعي بالفشل، فقد كان الرجل لطيفاً ومتعاوناً.

كنت أحسبني سأُسَيِّر أموري بإنجليزيتي الضحلة، لكني اكتشفت أني عندما سألت السائق من باب الملاطفة وفتح مجال للحديث عن عدد سكان يوجين أنه أجابني عن القدرة الاستيعابية لاستاد المدينة لكرة القدم الأميركية، الذي صادف أننا نمر إلى جواره!

غير أن أولى العثرات كانت مع موظفة استقبال الفندق، عندما طلبتُ منها توفير صندوق للأمانات، ولم تفهم طلبي.

سافرتُ قبل هذه المرة عشرات المرات، وحيداً، ومع العائلة، ومع رفاق، وفي كل مرة أعمد إلى مكتب استقبال الفندق وأطلب مثل هذا الطلب فيتوفر لي بسرعة. هذه المرة بدت الأمور تتعثر شيئاً ما.

كنت أنطق مفردة SAFETY BOX بالتشديد على الضم: بووكس، ولم تكن الموظفة تلتقط إشارة بثي!

بعد فاصل مؤلم من السجال، والأخذ والرد، ومحاولات الشرح بوسائل الإيضاح، واستخدام اليدين والرسومات، وغيرها... استوعبت الآنسة مرادي، وقالت بلسان حالها: قُل إنك تريد سِيفتي باكس. بفتح ما بعد الباء ومدها!

إنها إشكالية اللهجات والنطق، فالأميركيون يُخففون كلامهم، ويتلفظون به باختصار، ويقلبون حروفاً ويبدلونها بحروف أخرى.

شكسبير... يتخلى عن كبريائه!

علمت حينها أن عليَّ تعلم الكثير، وأن علي أن أتنازل عن اعتدادي بما لدي من إنجليزية ضحلة، كنتُ في السابق أتفاخر بها أمام من لا يُفرقون من الأصدقاء بين الـ A والـB، فأبدو لهم أقل بقليل من ويليام شكسبير، والتقليل هنا، من باب تحلة القسم فقط!

وبدأت مشوار إقناع نفسي، بأن ما لدي من إنجليزية، لا يُقيمُ أَوداً، ولهذا أنا هنا. على أن الكثيرين عندما كنت أتحاور معهم في الأماكن العامة، يُعقبون حواراتنا بتساؤل: ماذا جاء بك إلى هنا؟

فأجيب: تعلم الإنجليزية.

فيردون عليَّ بأن لغتي جيدة، وأني لا أحتاج إلى تعلم إضافي!

الناس في أميركا معظمهم لِطافٌ يتميزون بالحب والمودة، وهم عندما يقولون كلمة كتلك التي كانوا يقولونها لي في المطارات والمطاعم والمتاجر لم يكونوا يجاملون، أو يكذبون، بل يتعاطون مع كون اللغة هي القدرة على الحديث مع الناس، وطريقة التواصل مع البشر.

هنا وجدت مفارقة عجيبة!

فإحدى أهم مقومات تعلم اللغة في الخارج أن الناس لا يسخرون من أخطائك في اللغة.

بينما دروس الإنجليزية في الوطن، أو استخدامها بين الأصحاب أثناء السفر مظنة لأن تنهال عليك سياط سخرية ونقد و"تريقة" بلا رحمة.

كم استمعت لتعليق يُقال في السفر عندما يُخطئ أحدنا خطأ لغوياً ولو كان مقبولاً، فيسخر منه الرفاق بقولهم: "ذبحت اللغة يا شكسبير"!

أذكر أني سمعت صديقاً مرة يعلق على آخر تلعثم في جملة ونحن في سفر للخارج، فقال صاحبنا الساخر: "ترفق عليهم يا تشومسكي"(*)!

أنا متأكد أن صاحبنا هذا كان يظن أن تشومسكي وزيراً أو

(*) نعومي تشومسكي هو أستاذ اللسانيات واللغويات في MIT، وهو معهد ماسشيوتس للتكنولوجيا الشهير. وتشومسكي أميركي المولد والجنسية منذ العشرينيات الميلادية، ولد في فيلادلفيا (بنسلفينيا)، لعائلة روسية مهاجرة، وهو على ضلاعته في اللسانيات، إلا أنه من أشد المعارضين للسياسات الأميركية الخارجية، مناصر للقضايا العربية ضد إسرائيل بالرغم من أن أصوله يهودية، وهو من أهم المفكرين في الولايات المتحدة حسب مجلة بروسبكت Prospect عام 2005، وبعد أن كان تشومسكي رائد مدرسة لغوية هي مدرسة النحو التوليدي صار رائدا فكريا لما يسمي بالتشومسكيين وهم فصيل من مناهضي العولمة والسياسة الأمريكية في العالم الآن.

وجيهاً أو حتى لورداً، أو ربما كان رئيس تحرير صحيفة، مع أن صاحبنا لم يقع على اسمه إلا بطريق الخطأ في صحيفة كان يتصفحها ذات نهار بحثاً عن الكلمات المتقاطعة!

لا... بل إنك تجد شخصاً يضاهيك جهلاً في اللغة، وفي الغالب يزيد عليك، لكنه يحاول ستر عوراته الفادحة، وجهله المغدق بالسخرية السمجة واستخفاف الدم.

قل إن شئت: إنه يمارس بذلك، ادعاء ما لا يحسنه!

إن أهم ما تقدمه دراسة اللغة في الغرب، أن السكان المحليين، لا يعبؤون عادةً بأخطاء الوافدين الجدد، كما أنهم يتمتعون بطول البال، والصبر العجيب على الآخر لمعرفة ما يريده، لدرجة قد تستفز وافداً آخر!

احتقار "الحافلات!"

وصلتُ بلدتي قبل بداية الفصل الدراسي بأكثر من شهر ونصف، وهي مدة طويلة في العادة. لكنني كنتُ حريصاً على اكتشاف المكان، والتعرف عليه، وخصوصاً وأنا لا أضع قدمي لأول مرة فيه وحيداً، بل برفقة زوجتي وطفليَّ.

كان ابني عبدالله حينها عنده ثلاثة أعوام، بينما لم تبلغ ابنتي مي سوى بضعة أشهر. لم يكن مألوفاً أن يحضر الدارسون بعوائلهم منذ الوهلة الأولى، والعادة جرت أن يستكشف الزوج المكان ويستطلع الحياة في الغربة، ثم يأتي بأسرته فيما بعد، إن كان المكان مناسباً له ولها كذلك.

الشارع... مُعلماً!

شخصياً، كنت أريد التعلم، لا لأضيف إلى نفسي فحسب، بل لأسرة بأكملها، كنت أعلم يقيناً أن التعلم من تجربة كهذه، لا يكون فقط في صفوف الدراسة، أو داخل الحرم الجامعي، بل هو ممتد إلى أسلوب الحياة ونمطها، وبالذات خارج أسوار الجامعة، ولو في وسط الشارع.

كيف يمكن التعاطي مع تجربة جديدة في المكان والثقافة والمجتمع والبشر والأجواء... كافة؟

ليس ثمة في الغالب ما يمكن اعتباره قاعدةً حيال ما يجب على المرء فعله، هذا من حيث الإجمال في الغالب، وهو ما ينطبق على هذه المسألة تحديداً، من وجهة نظري على الأقل.

هل يذهب الدارس إلى الولايات المتحدة وحده، ثم تلحق به أسرته، أم أن يصلوا جميعاً، إذ لكل أسرة وضعها الخاص، وحالتها المختلفة عن غيرها، لكن ثمة ملامح عامة، ربما تعين الناظر على اتخاذ قرار في تلك المسألة. لأن حضورك وحدك في البداية، قد يسهل عليك ترتيب الأمور، وربما يسهم في جعلك أكثر تركيزاً وتفرغاً لتعلم اللغة، لاسيما أثناء الإقامة مع أسرة أميركية، كما هو معتاد.

لكنك من جهة أخرى، ستكون مشتت الذهن لطول تفكيرك بزوجتك وأطفالك، ناهيك عن آلام فقدان ما اعتدت عليه من استقرار عائلي... هذا بالنسبة للمستقر عائلياً، أما غيره فليس هذا موضع الحديث عنه.

الخلاصة أن كل إنسان يستطيع بالنظر إلى حاله، اتخاذ القرار الأنسب له.

ذهنية العمالة الكادحة!

بعد ثلاثة أيام من وصولي، ذهبت إلى معهد اللغة في الجامعة. كان قلق البدايات يساورني، بل يغشاني اجتياحاً، فأنا أُقبل على تجربة جديدة في حياتي، وهذا مقلق حد الوسوسة، وإن كنتُ متحمساً للتجربة، لكن هذه الحماسة تبعث في النفس خشية التعثر، أو مخافة أن تُخدش هذه التجربة، فما بالك بأن تُثلم ثلماً!

سألتُ عن طريق الجامعة، وتعرفتُ على الطريق الموصل إليها بواسطة الحافلة، وعندما سألتُ عن سيارة أجرة لتُقلني إلى الجامعة، استغرب موظف الفندق من السؤال، ثم أجابني بأدب.

كان مصدر عجبه، هو فارق الكلفة بين التاكسي وحافلات النقل العام.

اخترتُ سيارة الأجرة بخلفية الانتماء إلى ثقافة لا علاقة لها بالحافلات، بقدر علاقتها بالسيارات الخاصة، حيث يقود كل شخص بمفرده في الغالب سيارة تتسع مقاعدها لخمسة بالغين، أو أكثر، دون أن يشعروا بالازدحام.

إن المساحة الشاسعة التي تقع ضمنها المملكة العربية السعودية، بالإضافة إلى ارتفاع مستوى دخل الفرد، مقارنة بدول عربية مجاورة، جعل من توفر سيارة لدى كل فرد، سواءً كان من السعوديين، أو من المقيمين، أمراً ضرورياً، وهو إن كان مقبولاً في بدايات تأسيس المملكة، إلا أنه عاماً بعد آخر بات يشكل عبئاً على البيئة، وأثراً سلبياً على الازدحام، سيما بعد أن أصبحت مدينة مثل العاصمة الرياض، تحوي عدد سكان يقارب ستة ملايين بحلول 2007!(*)

من هذه البيئة جئت...

(*) وفقاً لإحصائيات وزارة الاقتصاد والتخطيط السعودية، للعام 2005، فإن عدد سكان الرياض بلغ 4,5 مليون نسمة، منهم 3,7 من السعوديين، ذكورهم 1,9 مليون، وإناثهم 1,8 مليون نسمة، أما الأجانب فهم 1,72 مليون، ذكورهم 1,22 وإناثهم 508 آلاف. (مصلحة الإحصاءات العامة =

إن شئتم الحق، فقد كان في ذهني -حينها- أن الحافلات إنما هي للعمالة الكادحة، وذوي الأجور المتدنية!

هنا تحضر في مخيلتي، الصور النمطية السلبية من جديد، وتصنيف الناس، لا بناء على إنسانيتهم، أو على عطائهم، بل بناءً على طبقتهم أو بناءً على ما يركبون!

عليّ أن أقول إن التجربة بمجملها، أسهمت في التخفيف من ذهنية التقليل من قيم الآخرين، بلا مبرر منطقي، بل وفقاً لتصنيف طبقي، أو عرقي، أو اقتصادي، بطبيعة الحال.

ميزة الحافلات أنها تمر بكثافة في العدد، وانتظام في الوقت، وأنها أقل أجرة، بل إن معظم المدن الأميركية، تُعفي الطلبة من دفع رسوم أجرة الحافلات، بمجرد إظهارهم بطاقاتهم الجامعية. كما أن للحافلات طرقاً خاصة، تسلكها بانسيابية، بينما تغرق باقي السيارات في مسارات مزدحمة، وبالذات في أوقات الذروة، صباحاً ومساء. لذا، فإنك تصل بالحافلة إلى معظم مناطق المدينة بسهولة، ويسر، وثمن زهيد، فلا تقع فريسة لغلاء مواقف السيارات -هذا إن وجدت موقفاً- ناهيك عن تجديد الدفع، مقابل الموقف كل ساعتين، أو ثلاث.

= بوزارة الاقتصاد والتخطيط السعودية)، أما هيئة تطوير مدينة الرياض فتقول إن عدد سكان مدينة الرياض في العام 2005 قد بلغ 4,260,000 نسمة، ويبدو أن الفارق بين الجهتين يعود إلى الفارق بين سكان مدينة الرياض ومنطقة الرياض، والله أعلم.

"هبَّتِ الريح..."!

وصلتُ إلى الجامعة، التي كانت تمور بأصناف البشر من كل الأعراق والثقافات، ولم تخطئ عيني رؤية عرب ومسلمين، بين الفينة والأخرى، وبخاصةٍ النساء... حيث يقودك حجاب بعضهن إلى تمييزهن دون عناء.

توجهت إلى معهد اللغة، وهناك قابلتني مسؤولة الطلبة الدوليين، فهَشّت في وجهي وبَشّت، بما أزال عني هواجس الغربة، ولواعج الحنين إلى الوطن، وأبدل وحشتي أُنساً، وقلقي هدوءاً وطمأنينة.

سألتني: هل ترتبت أمور سكنك؟! قلت لها: لا، فأنا أسكنُ مؤقتاً في فندق، إلى أن أجد مكاناً مناسباً للإقامة.

رتبت السيدة لي أوراقي التي تتعلق ببيانات التسجيل، وملأت الاستمارات المطلوبة مني، بنفس طيبةٍ ومحيا طَلِقٍ، ووجهٍ باسمٍ، ثم سحبت من مكتبها أوراقاً، وقدمتها لي، كان فيها بيانات لأماكن سكن مقترحة قرب الجامعة، ومعارض سيارات إن رغبت بالشراء، ثم أعطتني رقمها المباشر، ورقم المكتب العام، وقالت لي: لا تتردد في الاتصال بنا، إن أردت أي شيء، وبخاصة، عندما تواجه مشكلة، أو تعثراً.

جمالُ خَلقٍ... وخُلُق!

السيدة، ذات الأربعين عاماً، لم تكن جميلة في شكلها، لكن أخلاقها كانت مضرباً للمثل، وقد بذلت كل ما في وسعها لخدمتي، وبدت لطيفة جداً، ومتعاونة إلى أقصى حد.

خـرجـت مـن مكتبها، وأنا فرحٌ مسـرورٌ ببدايةٍ جميلةٍ، لكني أصـدُقُكم القـول: إن شكوكاً عـارمةً كـانت تنتـابُني، بل تَهجُمُ عليَّ بشـراسـةٍ، قِـوَامُـهـا سـؤالٌ مُلِحٌ: مـاذا وراء اللطف البـالغ من تلك السـيـدة، وبذلِ الوسع في المسـاعـدة والعـون، وطلاقـة الوجـه في الترحيب، والاحتفاء البالغ بِقُدومِي؟!

كنتُ أحـسبُ أني بتـسـاؤُلي، العـاصف في ذهني، وشكوكي القلقـة، أضع نفسي في الموضع الصـحيح، بعـيداً عن السـذاجة... بعيداً عن ما نصطلح، في بلادنا، على تسميته بـ"الدلاخة"!(*)

أي ثمنٍ يجبُ عليّ أن أدفعه مقابل ذلك؟! وما القيمة التي عليّ أن أُسـدِدَها، لقاء كل هذا اللطف، وكل تلك الحفـاوة، وجـميعُ ذلك الاستعداد الأكيد، والرغبة العارمة، للمُساعدة والعون؟!

ظننتُ، ولو لوقت قصـير، حـينهـا، أني المتفرد بعناية السـيدة الأميـركيـة، وسلوكهـا اللطيف، وأن العبد لله، هـو المحتكر الوحيـد، والمختص الأوحد، لِهَبّةِ الريح، التي جاءتني، من قبل مسؤولة الطلبة الدوليين!

(*) واسم المفـرد منهـا، الدِلخ في العـاميـة النجدية، وهـو السـاذج المفـرط في سذاجته، ولم أجد لها أصلاً فصيحاً، إلا أن الدَلِخ هو السمين، فلا أدري هل ربط العـوام بين السـمنـة والسـذاجـة؟! لو ثبت ذلك لوجب إيراد ذلك ضمن العنصرية ضد السمان في كتابي: "ذكريات سمين سابق".

في كل بيت... أم!

لا أُخفيكم أيضاً، أنني للحظات، خِلتُ هذا الذي وقع لي، إحدى آثار دعوات والدتي -حفظها الله- لي، عندما كانت ترفع يديها إلى السماء، لاهجة بصدق، وإخلاص، ومحبة، لا يعدلها محبة: "الله يذلل لك، صُلاّح أهل الأرض، ويصرف عنك، مَردتَهُم وفُسّاقهم".

اكتشفتُ فيما بعد، أن سلوك هذه المرأة الأميركية الطيبة، لم يكن مُختصاً بأحد، دون أحد، بل لقد كانت السيدة اللطيفة، تمنح ذاك العون وتلك المساعدة، لكل الطلبة، من الذكور والإناث، دون تفريق بين جنسية وأخرى، أو شخص وآخر. واكتشفتُ بعد فترة أيضاً، أن جميع الطلبة الخليجيين، كان كل واحد منهم يَحسَبُ اهتمامها حكراً عليه دون غيره!

ربما كانت دعوات أمهاتنا العظيمات، تهبنا الإحساس الباذخ بالتميز دون غيرنا... مع أننا لم نفكر، للحظة أن في كل بيت من يلهج بالدعاء لبنيه!

المهنية... غياباً وحضوراً!

الحقيقة أني كنتُ، بهذه التفسيرات والظنون، فيما يخص سلوك السيدة، المعاون لي، أبتعدُ عن الأنسنة!

أجِدُني الآن، لا ألومُ نفسي كثيراً على هذه التفسيرات، فسبب تلك الهواجس البائسة، أننا لم نعتد كثيراً، في مجتمعاتنا، إتقان

العمل والتفاني فيه، ولا ألِفنا ممارسة اللطف في المعاملة. أقول ذلك، وأنا في غاية الأسف، ومنتهى الألم!

إن ما لقيته من مسؤولة الطلبة الدوليين، لا غاية وراءه ولا قصد، غير احترام العمل، والوظيفة، والمسؤولية، وبطبيعة الحال، لا يتحقق ذلك من دون نقاوة إنسانية.

الثمامة.. في أميركا!

بقيتُ في الفندق، الذي سكنت فيه، أول وصولي أسبوعاً أو أكثر بقليل، بحثت خلاله عن شقة، ولمّا وجدتُ واحدة، استأجرتها، ثم شرعت في تأثيثها.

بعد الأسبوع الأول، انتقلت إلى شقتي التي لم تكتمل بعد...

مسيحية تدعوني إلى المسجد!

كان أول تواصل لي مع العرب، في بلدتي الصغيرة، عندما أشارت عليّ المسؤولة عن الطلبة الدوليين، أن أذهب إلى المسجد الوحيد في تلك المدينة، حصل ذلك قبيل الدراسة، بعد مضي نحو شهر، قضيته في ترتيب شؤون معيشتي.

كانت مفارقة لافتة، أن تشير عليّ أميركية مسيحية، بأن أنضمّ إلى ركب من "الناس الجيدين"، على حد تعبيرها، عندما قالت بجملة تشبه المُسَلَّمات القطعية: "إن في المسجد مجموعة من الطيبين"، وأضافت: "هل ذهبت إلى المسجد؟ هناك أناس طيبون ولطافٌ سَيُسَلون غُربتك".

قلت لها: "لا أعرف العنوان"!

التفتت إلى طالب عربي مسلم، كان يجلس منهمكاً إلى جهاز كمبيوتر، وسألَته: "حُسين... هل تعرف عنوان المسجد؟!".

تغيّر وجهه، وأجاب بخجل وتلعثم: "لا"!

وددتُ أن أقول له لو لم أظن ذلك سيزيد خجله: لن أعنفك، يا عزيزي، فلا تخجل!

أدارت السيدة دليل التليفون الأصفر، الذي يحمل في طياته عناوين البلدة، باتجاه المركز الإسلامي، وفتحت الخريطة لتريني الطريق.

الحقيقة أن المسجد، لم يكن مركزاً، بكل ما تحمله هذه الكلمة من تفخيم، وتصورات مسبقة...

كان بيتاً، صغيراً...

ولولا خشية أن أُغضب السادة الأحناف، لصغّرت البيت، إلى بُوَيت، لأنه لم يكن يتجاوز ثلاث غرفٍ، إحداها لصلاة الرجال، وأخرى لصلاة النساء، وثالثة تشرف على المطبخ، بما يمكن استخدامها تجاوزاً كغرفة طعام، بالإضافة إلى دورتي مياه واحدة للرجال، وثانية للسيدات.

لكن هذا كله، لم يكن القضية...

مكر... الأعداء!

لم يكن شيء يخطر في ذهني، وأنا خارج من عند مشرفة الطلبة الدوليين، أتأبط عنوان المسجد، وقد خطه يراع سيدة مسيحية أميركية، سوى النصائح التي أسداها إليّ بعض الأصدقاء بالمجان، بعد أن عنفوني لأني قررت الذهاب إلى أميركا...

كان جُلُ هذه النصائح، ينصبُ على وجوب التنبه، بما يجدر بمؤمن كيِّس، إلى مكرِ القوم، وحرصهم على بذل الوسع لصدي عن ديني، وفتنتي في دنياي!

غير بعيد، عن ذلك كله، ما سَكبته، أمُ أحد الأصدقاء، وكانت عجوزاً تنضح طيبة، ولا ضير أن أزيد على الطيبة، فأقول: وأميّة، عندما قالت لابنها ما معناه: تنبه يا بُنيّ من الأميركان؛ هؤلاء الغربيين المسيحيين الفجرة! فقد بلغني بإسناد جيّد، عن جارتنا، التي سافرت كثيراً، وعرفت الآخرين، وخبرت عاداتهم، ودرست سلوكهم، أنهم عادة ما يقدمون لك الخمر، على اعتبار أنها عصير، والخنزير على أنه لحم غنم أو بقر!

المضحك في القصة، أن الإسناد المتسلسل بثقات أم صديقي، لم يكن سوى نقل عن عجوز، أبعد ما وصلت إليه، أنها ذهبت صيفين متتاليين إلى دولة عربية سياحية مجاورة!

أحسبُ أن أم صاحبي، لم تكن تعتبر صديقتها العجوز ثقة ثبتاً، لو أنها ذهبت إلى تلك البلاد مرتين غير متتاليتين، ولَرُبما اعتبرت حينها، الإسناد مثقلاً بالعنعنة، مشوباً برواية المشكوكين!

مساجد محطات الوقود!

أعود إلى قصتي مع مسجد مدينتي الصغيرة، أو مركزنا الإسلامي، لا يهم.. فلا مُشّاحة في الاصطلاح، كما يقول الأصوليون...

كان الوقتُ صباح الجمعة، وصلت إلى المسجد قبل الخطبة... كان الوضع أشبه ما يكون بالمُصليات، الملحقة بمحطات الوقود، فيما يصل بين المدن السعودية الكبرى، كان المصلون لا يتجاوزن العشرين مُصلياً تقريباً، غير أن الفارق هنا، في الأجواء خارج المبنى الخشبي، إذ كانت الأمطار تتواصل وكأن القوم صَلّوا استسقاءً، بقلوب مُخلصة نقية!

بعد الصلاة، التفتَ إليّ، الرجل المحاذي لي، وصافحني، وقال لي:"أنا عبدالعزيز..."

كنتُ قد سمعت عن عبد العزيز قبيل الصلاة، من أحد الشباب الذين وجدتهم في المسجد.

عرّفني الرجل بنفسه، وبتخصصه، وخُضنا في حديث تلقائي شائق، وإن كان قصيراً، لكنني أدركت من خلاله لطف الرجل، الذي ما لبث أن أكد لي التصور الأولي الذي اكتسبته عنه، عندما دعاني بإصرار إلى تناول القهوة في منزله.

يجب أن أؤكد هنا، على أن الكرم منذ قديم الزمان جزءٌ أصيلٌ في الثقافة العربية، يؤكد طيب خصال صاحبه.

وفي الأمثال التي يتداولها القوم في مناطقنا: الكرم يغفر كل عيب، ويدمحُ(*) كلّ زَلّة!

(*) يدمح بالمحلية الدراجة في أواسط السعودية أي: يعفو. يقال: فلان يدمح الزلة، أي يتجاوزها ولا يقف عندها بكرمه وسماحته. ولا أدري هل هناك علاقة لاشتقاقها مما ورد في لسان العرب: "دمَّح تدميحاً طأطأَ رأسهُ"؟!

عشق أهل البن... للكيف!

لستُ من عشاق القهوة العربية، ولا أتناولها إلا في المناسبات، ومن باب المجاملة في الغالب. عندما ضيّفني عبدالعزيز بأول فنجان، ارتشفت أول رشفة من القهوة، التي كانت رائحتها تفوح بعبق الهيل، كما لو أنك قد أطلقت عطراً في الأرجاء. كان هذا هو الفنجان الأول منذ أشهر. وجدتُ نفسي مثل عاشقٍ، أطفأ نيران شوقهِ برشف ثغرِ محبوبةٍ، لم يعرف قيمتَها، إلا بعد أن هجرته!

عندها فقط... فهمتُ معنى قول خالد الفيصل:

أعن له عنّة هل الكيف للهيل

ما ذاق راعي الكيف ذقته هنيّا(*)

بعد حديث شائق، سامرتنا فيه تُميرات فاخرة من السُكري، ودلة قهوة تنتصب بيننا بشموخ، عرض عليّ عبدالعزيز، الذهاب إلى محمد، الشهير بأبي صالح، وكان الأخير دعاه إلى مشاهدة تسجيل فيديو لمباراة الملاكم البريطاني اليمني الأصل نسيم حميد. كانت المباراة انتهت قبل ساعات، وقد سجلها محمد، ودعا عبدالعزيز وبعض الشباب لمشاهدتها.

حاولتُ الاعتذار، فقد تركتُ زوجتي وأولادي في شقة جرداء،

(*) المعنى أن الشاعر يشتاق لمحبوبه كما يشتاق عاشق القهوة لكيفها، و(هل) بالدارجة تعني أهل، و(ما ذاق) تعني الذي ذاقه، و(هنيا) أي هاهنا.

في بلد لا يعرفون فيه أحداً، وأنا أغيب عنهم منذ الصباح للدراسة، فالصلاة، ثم في منزل عبدالعزيز...

لم يترك لي صاحبي فرصة للتملص، وكان إلحاحه يحمل نكهة الوطن، فرضخت له.

"بنت... البكّار"!

عندما اقتربنا من منزل مُضيفنا، لاحظت شاباً يقف أمام عتبة باب داره، وقد اعتمر شماغاً وارتدى جلابية منزلية!

آخر شيء كنت أتوقع رؤيته في مجمع سكني في أميركا، شاب يرتدي زياً، خُيِّل إليّ وكأنه خارجٌ من خيمة في وسط الثمامة مثلا، المنطقة الصحراوية التي أضحت متنزهاً لسكان الرياض وما حولها، وبخاصة عندما تجود السماء بالمطر.

ليس ذلك فحسب، بل لقد نَسَّف شماغه على الطريقة المسماة "بنت البكار"، وهي أن يُعيد الطرف الأيمن من الشماغ إلى أقصى الخلف من الأعلى باتجاه اليسار والعكس بالعكس.

استدعى الموقف، أن أسعى جاهداً لإخفاء أمارات الدهشة والتعجب عن محياي، كي أبدو أليفاً في ما يتعلق بي شخصياً، وحتى لا أسبب الحرج للمضيف، أو للرجل الذي أنا في صحبته.

أجواءٌ كهذه، عادة ما يصاحبها احتفالية من ألفاظ الترحيب، يُلقيها المضيف على ضيوفه، كل برهة من الزمن، يسود المجلس فيها شيء من الصمت.

استمتاع... بالضيافة!

منزل أبي صالح شقة صغيرة، يتكون دورها الأرضي من مطبخ صغير، لو تثاءب فيه رجلان لتشابكت أيديهما.

تناثرت في المطبخ الدِلالُ، والأباريقُ، وبقايا علب فارغة، وقدور، وصحون استخدمت، قبل ساعات، وربما أيام، وتنتظر هِمة نشيطٍ ليغسلها، ويعيد للموقع شيئاً من احترامه!

المطبخ ذو الجدران المائلة إلى اللون الأصفر الباهت، مفتوح على صالة مشرفة عليه، وهو بالكاد يتسع لوقوف أربعة رجال بالغين، وكان المكان يشي بحضور طاغٍ للعزوبية في أوضح صورها، وأبلغ تجلياتها!

قام محمد بشأن الضيافة، كما يجب وزيادة، فأوقد النار تحت دلة مُهيأة استعداداً للضيوف، ثم عمد إلى علبة مسحوق حليب صدئة، فأخرج منها فنجاناً تعبق رائحته بالقهوة، وسكبه في الدلة غير مرة، ولسانه يلهج بعبارات الاحتفاء، وقد امتلأ وجهه بالسرور والحبور.

كان وجه محمد طولياً، أحالته الفرحة بالضيوف إلى قرص قمر أجمل ما يكون استدارة وفرحاً وبهاءً.

تذكرت حينها أن الله يمنح أناساً المتعة بمجرد إكرام الآخرين.

مثل هذه الحاله تذكرك بيت الفرزدق:

تَراهُ إذا ما جئتَهُ متهللاً

كأنكَ تعطيهِ الذي أنت سائله!

محمد عبده...
وسلمان العودة!

كانت صالة منزل أبي صالح، حيث جلسنا، ضيقة نوعاً ما، فيها مطارح للجلوس، نثرت على الأرض كما لو كانت في بيت شَعْرٍ.

إذاً... فالجلسة أرضية، لا كراسي فيها!

هذه قصة لافتة أيضاً، فالجلسات الأرضية تكاد تتلاشى من غرف الجلوس الرئيسة في السعودية، وتتجه إلى خارج المنازل، حيث الملاحق والخيم، وبيوت الشعر المنزلية.

وأنا هنا، أجد الضيافة على الأرض، وأين؟!

في أميركا...

ربما أراد أبو صالح أن يُـذَكِّرَنَا، من حيث يدري أو لا يدري، بالآية القرآنية: (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى).

تلفّتُ حولي فوجدت مجموعة مبعثرة من كراتين الجُعّة، أوالبيرة، البودوايزر (Budweiser)، وقد اكتظت الكراتين بعشرات من أشرطة الكاسيت، غير المنتظمة... هندسياً، ولا موضوعياً... بل، ولا فنياً.

بعض تلك الأشرطة قديم لدرجة أننا نُسميه بالدارجة النجدية "ممحل"، وتعني القديم البالي.

مادة الأشرطة، أغانٍ لمحمد عبده، وعبدالله الصريخ، وحمد الطيار، وفهد السعيد، وهم فنانون سعوديون.

الأول اشتهر عربياً، أما البقية، فمعروفون في أوساط شعبية محلية ضيقة.

وأحسبُ، أنهم لو علموا أن أشرطتهم تُسمع في أميركا، لأُصيبوا بصدمة وذهول، ذلك أنهم لم يطمحوا بالوصول إلى دول الخليج العربي الست، مجتمعة، أو متفرقة... فكيف بشمالي غرب أميركا؟! حيث فارق التوقيت مع السعودية 11 ساعة!

أعياد الكفار... وبودوايزر!

إلى هنا، والوضع يبدو طبيعياً، فما مَرَّ وصفهُ، يمكن تصنيفه تحت مظلة واحدة، هي الفن السعودي، سواءً كان مغرقاً في المحلية، أو ممتداً إلى خارج الحدود!

لكنكَ، إن أمعنت النظر في الأشرطة، ستعجب بلاشك، أن بينها أشرطة إسلامية، لدعاة سعوديين، يحملون العالمية، في فنون الشريعة الإسلامية، مثل: سلمان العودة، ومحمد الشنقيطي، وسفر الحوالي!

وما زال عنوان شريط للأخير، يحتل من ذاكرتي حيزاً، ويشغل في ذهني مكاناً يعُجُ بعلامات الاستفهام، وكان عنوانه: "حكم الاحتفال بأعياد الكفار"!

مُعظم الأشرطة الدينية، هذه، كانت تنتمي إلى نِتاج عقد التسعينيات الميلادية، وهي حقبةٌ اتسمت بصعود لهجة الخطاب الديني في السعودية، نحو التصعيد أحياناً، والمواجهة، أحياناً

ثانيـة... مع أقطاب مـخـتلفين... بداية بالحكومـة، وليس نهـاية بتيارات فكرية أو مذهبية أخرى.

الجنازة... وراكان بن حثلين!

بعد دقائق، بدا محمد منتصباً، يقدم القهوة لنا، وعبارات الترحيب لا تفارق شفتيه. كان لون القهوة الذهبي يشكل قوساً فنياً، يمتد من لسان الدلّة، التي أمسك بها المضيف باليد اليسرى، حتى الفنجان الذي أعده ليقدمه إلى ضيوفه بيده اليمنى، تكريماً وإجلالاً لهم. ناهيك عن الرائحة الجميلة الأخاذة، تلك التي كانت أول دلالة على طيب مذاق القهوة العربية، وجودة بُنِّها وما مزجت به من حب الهال.

عرّفنا عبدالعزيز ببعضنا؛ أنا ومضيفنا، عبر تبادل الأسماء، وكان حديث محمد بذاته، بعد ذلك، وسيلة للتعرف عليه، أكثر فأكثر.

بادر محمدٌ عبدالعزيز سائلاً له حيث كان يعتبره مرجعاً، عن ما بدا مستشكلاً عليه... عن تفاصيل معركة السبلة، ومتى أُطلق لقب "الجنازة"، على عبدالعزيز المتعب الرشيد... وعن أشياء أخرى، استغرقنا الحديث فيها... ونال نصيباً منها، لورانس العرب، وراكان ابن حثلين!

من جديد، كان آخر ما أتوقعه، حديثاً كهذا، وفي هذه الديار!

Girlfriend متخفرة!

بعـد عـدة أشـــهر، علمتُ أن صـديقة محمد، (Girlfriend)، كانت متخفرة! فهي كانت تُقيم معه، حيث يسكن، واضطرت للجلوس في الدور العلوي، طيلة فترة استقباله لنا، بإيعاز منه، بوصف هذا السلوك شكلاً من أشكال التمسك بالتقاليد!

أبو صالح، شاب بلغ الـ 21 عاماً، بعد أول لقاء لي معه بأشهر، ولا يسمح النظام في معظم الولايات المتحدة، لمَنْ هم دون الواحد والعشرين عاماً، بتعاطي المشروبات الكحولية، وبالتالي، لا يسمح لهم بارتياد الحانات، أو الملاهي الليلية. كان أبو صالح، مع مجموعة من الأصدقاء، يبدؤون إجازاتهم الأسبوعية بنشاط يوم الجمعة. فيُصلون الجمعة في المسجد بعد أن تسمح لهم الجامعة بقطع الداوم من أجل الصلاة، وبعد الصلاة ينشغلون في التخطيط لأماكن السهر.

من لم يبلغ السن القانوني منهم، كان يملك رخصة قيادة دولية، تجعل عمره مناسباً لدخول تلك الأماكن، وذلك بالنظر إلى أن مكاتب السفر والسياحة، في دول الخليج، تُصدر هذه البطاقات بمقابل مادي، من دون تشديد على مطابقة العمر مع المستندات الرسمية.

للأمانة، فإن هذا كان منتشراً قبل الحادي عشر من سبتمبر (أيلول) 2001، ولا أدري كيف بدّلت أحداث سبتمبر هذه الأحوال.

لا يُمكن تقديرُ عمر " أبو صالح "، للوهلة الأولى، بأقل من منتصف الثلاثينيات، سواءً استندتَ إلى طباعه، أو حديثه، أو حتى شكله، مع أنه حقيقة في مطلع العشرينيات.

جاء أبو صالح إلى أميركا، بعد أن كان من هواة الرحلات البرية في السعودية، حتى تشّرب البداوة، ومع أنه من أسرة حضرية تماماً، إلا أن من السهل أن تلمح لكنة بدوية في ألفاظه، ينساب بها حديثه بلا تكلف.

الدهناء
تحتضن "الهولووين"!

أما الدهناء، فهي الصحراء التي تمتد من شرقي الجزيرة العربية، إلى وسطها.

وأما الهولووين "HALLOWEEN" فهي المناسبة التي كان يحتفل بها المسيحيون، في العالم الغربي فقط، عشية عيد كل القديسين، ويقوم فيها الأطفال بارتداء أزياء تنكرية، معظمها مرعب، ويقرعون أبواب الجيران طالبين الحلوى. حتى تحول الهولووين أخيراً إلى مناسبة يحتفل بها الجميع، دون علاقة بالديانة، يتقمصون فيها الملابس الغريبة والمرعبة في أكتوبر (تشرين الأول) من كل عام.

أما علاقة الدهناء بالهولووين، فهذا ما سيتبين لكم، سيما أن محمداً، هو الذي أوجد هذه العلاقة، ليكون بذلك أحد روّاد الجمع بين هاتين الثقافتين المتنافرتين جغرافياً وعرقياً وربما أيديولوجياً، إن صح التعبير. ليس ذلك فحسب، بل وربما بشكل لم يسبق صاحبنا إليه أحد.

إطعام طير... على ثلاجة!

ليس غريباً أن تجد صُوراً فوتوغرافية، لأبي صالح - وهذه كنيته التي غلبت اسمه الأول- وهو يُطعِم طيره -الصقر العائد له- على كثبان نفود رملي ناعم، في صحراء الدهناء الذهبية، ملصقة على ثلاجة مطبخه، إلى جانب... صور لاحتفالاته الصاخبة مع أصدقاء وصديقات بالهولووين، وقد تنّكر بزيّ يبدو للأميركيين، في

غاية الغرابة، بينما لم يكن بالنسبة لأبي صالح، سوى زيه التقليدي اليومي في بلاده: الثوب، والغترة، والعقال المائل على رأسه!

يعكس لك هذا المشهد الكثير من شخصيته.

حتماً، عندما ترى صور الهولووين المعلقة على ثلاجة أبي صالح، ستتذكر شريط الدكتور الحوالي: "حكم الاحتفال بأعياد الكفار"، وإن كنتَ سعيداً، لن تتذكر المنتج الذي كان الشريط، يتخذ من صندوقه منزلاً ومسكنا!

"دعوات... نايت كلوب"!

ينقُلُ الأصدقاء عن أبي صالح، بل ويحدث هو عن نفسه أحياناً، أنه كان في أيامه الأولى، في الولايات المتحدة، يدعو إلى منزله كل عربي يجده في الطريق، أو في (السوبرماركت)، أو حتى في الـ"نايت كلوب"!

وعندما تظن أن هذه مبالغة، فأنت بالفعل بحاجة إلى أن تعيش معه أياماً ولو قليلة، لتتبين الفارق بين الواقع والمبالغات.

لا يكتفي صاحبنا للتعبير عن شخصيته وكرمه بمجرد الاستضافة في منزله، على فنجان من القهوة أو إبريق من الشاي، بل إنه في الغالب يولم لضيفه، بأن يطهو بنفسه أرزاً على الطريقة السعودية، مع صينية من الدجاج أو لحم الضأن المذبوح حلالاً والذي يقطع محمد لتوفيره، نحو 150 كيلو متراً!

ويبدو أن هذا الرجل، الموغل في الطيبة، كان يعامل الجميع بمقاييس طيبته هو، فارتدت معاملات الناس له، بمقاييسهم عليه بصدمات متتالية!

غير أن ذلك لم يقطع لأبي صالح ذِكراً، ولا يُطفئ له ناراً، وبخاصة في مدينته الصغيرة، التي ترقد زاهية بجمالها على الجانب الغربي من القارة الأميركية.

الثُقلاء..
يملؤون الأرجاء

للطعام بالنسبة للسعوديين في أميركا، قصة جديرة بالرواية، ولأن من النادر أن تجد مطاعمَ تقدم الأكل الشرقي إجمالاً والعربي خصوصاً، في مدن صغيرة كمدينتنا، ترتفع قيمة إتقان الطهو عند المغتربين، وبالذات بين العزاب منهم.

الحقيقة أن لإتقان الطبيخ في الغربة قيمة عالية، حتى في المدن الكبيرة التي قد يوجد فيها مطاعم عربية.

ولأن أبا صالح كريم ومعطاء، أصبح أشهر من يطبخ الكبسة، بين مجموعة الشباب العزاب في منطقته، بل إن المتزوجين ينضمون إلى قوافل المستمتعين بأطايب طعام مائدة أبي صالح الأرضية في أحايين كثيرة.

زوجة محظوظة

ومن الطريف أن أبا صالح، عندما يهِم أحد المتزوجين بالخروج من بيته، بعد وجبة عشاء دسمة، يُقدم لضيفه مجموعة أطباق مغلفة من طبيخه، ليذيق الزوج منها زوجته، مما جعل معظم نسائنا يعتقدن يقيناً بأن زوجة أبي صالح ستكون محظوظة لاقترانها بطباخ ماهر. وكُنّا نَقُول لهن: إن هذا ليس صحيحاً على إطلاقه، فهو سيكون دقيقاً في اكتشاف مكامن الخلل والتقصير في طهيها منذ بدايات الزواج، أكثر منا نحن الذين لا نعرف التفاصيل، عندما كنا نقبل بكل ما يسمى - تجاوزاً - طبيخاً!

واجه أبو صالح بطيبته وكرمه ومحبته للناس الكثير من الثقلاء. فقد جاءه أحدهم، ذات يوم وجلس إليه ساعات، رغم أنه لا

يعرف منه إلا شكله، واسمه الأول، ولم يخجل من أن يُفصح بأن شيئاً لم يأت به، سوى أنه مُشتاق لارتشاف القهوة العربية، التي يجب على أبي صالح أن يقوم بإعدادها الآن، ليطفئ شهوة هذا الثقيل!

هل تتصورون أن صاحبنا وبَّخ هذا الثقيل؟!

أو أنه قال له: يا أخي، على الأقل اتصل بي، لتعرف هل يناسبني وقت حضورك، أم لا؟!

على العكس تماماً، اكتفى محمد، بإعلان استيائه بين جوانحه، دون أن تبدو على وجهه علامة امتعاض واحدة، وصنع للثقيل القهوة، وظل يسكب له فنجاناً بعد الآخر، حتى قرر الثقيلُ الرحيل، بعد ساعة من الزمن، بدت لأبي صالح دهراً!

وكم اشتكى محمد لي شخصياً، بأن أكثر من شخص طلب منه أن يطبخ كبسة لأصدقائه وصديقاته الأميركيين، الذين دعاهم هذا المتطفل ليتذوقوا نكهة الطبخ العربي!

بل ربما تكون دعوة هذا المتطفل ضيوفه إلى منزل أبي صالح نفسه!

الحقيقة، أنه دعاهم ليستعرض أمامهم ما لا يتقن ولا يملك.

أسوأ الأشياء، أن تتملكك الرغبة في أن تفتخر بما لا تُحسن، أو بما هو ليس لك أصلاً، أو أنك لا تملكه بحال من الأحوال!

كبسة... وانتقادات!

يبدو أن قدَرَ الطيِّب في هذه الحياة، أن يكون صيداً سهلاً لأناس لا تنقصهم الوقاحة، و"سعة الوجه"، مثلما نطلق في السعودية على عديم الذوق!

وعلى الرغم من تفضل أبي صالح على الشباب بطبخه لهم في المناسبات، وبمعدل مرتين في الأسبوع في المتوسط، إلا أن بعضهم يجعل طبخه هدفاً لتعليقاته، التي لا تصدر بطبيعة الحال إلا بعد ملء البطون، ولعل أشهرها قول أحد الخبثاء ببجاحة: إن كبسة محمد، ذات طعم واحد ولون واحد لا يتغير ولا يتبدل ولا يتطور.

وكأن صاحبنا، يريد من أبي صالح تهيئة بوفيه مفتوح يحتوي على عشرات الأصناف من الأطعمة والمأكولات والمشهيات... والمقبلات!

ألم أقل لكم قبل ذلك إن الخيارات في الغربة، تبدو أقل توافراً منها في الوطن.

إنك تضطر لصداقة أناس في الغربة، لم يكن لك لتتقبلهم في الوطن، لولا انعدام الخيارات. أحياناً في الوطن لا تقبل أن تقف في طابور انتظار الحصول على رغيف خبز حار، مع شخص قبلت به صديقاً في الغربة!.

الطعام...
في بلاد العم سام!

تستحق قصة الطعام في هذه البلدة، من الولايات المتحدة الالتفات، فعند تفكير المغترب في تناول اللحوم يجد نفسه أمام خيارين:

- اللحم الأبيض من دجاج وسمك.
- اللحم الأحمر، باستثناء لحم الخنزير؛ الذي يُجمع السعوديون على رفضه بدافع التقزز الفطري قبل الدافع الديني.

ويتجه أغلب الملتزمين إلى اللحم الأبيض، ومع ذلك تجد أن بعض المحافظين يرفض تناول الدجاج الأميركي، لأنهم لم يتأكدوا من طريقة تذكيته وفقاً للشريعة الإسلامية.

بالطبع ليست المقاطعة هي الدافع، مع أني قرأت مطالبات عبر الإنترنت -في أثناء دعوات المقاطعة- للطلبة المغتربين في الولايات المتحدة بمقاطعة المنتجات الأميركية!

دعوة للمقاطعة

وأذكر أن حريصاً دعاني في حوار إلكتروني إلى الانضمام إلى جحافل المقاطعين في نهايات 2001، فقلت له: أنا أسكن في أميركا، فكيف أقاطع البضائع الأميركية، وأنا أعيش في بلدها؟!

كان سؤالي يحاول أن يحرك كوامن المنطق عند محاوري، غير أننا فيما يبدو كنا نفكر في خطين متوازيين، ومن المعلوم من الرياضيات بالضرورة، أن المتوازيين لا يلتقيان أبداً، بدلالة أنه قال لي: أخلص النية، وسيعينك الله! ولما أبديت له دهشتي، قال لي: ألم

يقل الله تعالى: ﴿**ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب**﴾.

قلت له: بلى، ونِعم بالله، لكن في تنزيل هذه الآية على هذه الحالة، تحميل الآية لما لا تحتمله، وبينما نحن في أخذ ورد، تذكرت الخطين المتوازيين، فآثرت التوقف.

غير أن رفض الدجاج الأميركي، عائد إلى أن الملتزمين من المغتربين لا يأكلون الدجاج، إلا إذا تأكدوا من ذبحه وفق الطريقة الإسلامية، ولأنه لا يتهيأ دجاج في مدينتنا بهذه الصفة، يضطرون إلى قطع أكثر من 100كم باتجاه مدينة يتوافر فيها مرادهم، وإن دفعوا له قيمة أعلى بكثير من الدجاج الذي يتوافر في (السوبرماركت).

أما الغالبية فإنها تأكل من الدجاج العادي، إما لأنها لا تبالي بهذه التفاصيل، أو لأنها ترى أنه يندرج تحت ذبيحة أهل الكتاب التي أبيحت لنا.

التسويق بالحلال

ثمة ملمح يستحق الذكر، وهو أن البقالات العربية، في أميركا، عادة ما تحرص على التسويق بكون اللحم الذي تقدمه حلالاً، وقد وجدت يوماً سمكاً مغلفاً وقد كتب عليه: (حلال، ذبح على الطريقة الإسلامية)!

بعد الملل من تناول لحوم الدجاج أو السمك فإنك لا تجد أمامك سوى لحم البقر أو الخنزير، الأول غير مستساغ في الغالب

إلا في الشواء، ويمنع التحريم والاشمئزاز من تعاطي الثاني كما أشرنا.

وأؤكد على الاشمئزاز فيما يتعلق بلحم الخنزير، لأني أرى مَنْ لا تعني له قضايا التحريم شيئاً، لكنه إذا قدم إلى المطعم عمد إلى النادل فحذره من أن يصاحب طعامه لحم أو شحم أو زيت للخنزير أو ما خالطه، أو حتى ما طبخ معه!

أما الضأن فإن الأميركيين لا يقبلون عليه كثيراً، ولذا لا تجده منتشرا في أقسام بيع اللحوم، وإن كنت ترى قطعان الغنم ترعى في سهولهم الخضراء فأغلب الظن أنها تربى للاستفادة من صوفها!

ويقطع الشباب في مدينتنا أكثر من 150كلم، صوب مزرعة اعتاد مالكها على بيع الضأن للعرب والمسلمين، وخاصة إذا اقترب موسم عيد الأضحى، ويقوم هو بسلخ الذبيحة المختارة، وتقطيعها حسب الطلب، وذلك بعد تذكيتها بالذبح الشرعي على يد المشتري.

قال لي صديق: " ذات عيد أضحى، ذهبت مع الجموع إلى حيث المزرعة السابقة، فلم نجد فيها ما نريد. ثم ذهبنا إلى أخرى غير بعيدة عن الأولى، وعندما حل وقت العصر اتصلت بصديقي في الرياض، وطلبت منه أن يشتري لي بطاقة من أحد البنوك التي تبيع لحوم الهدي والأضاحي التابعة لمشروع البنك الإسلامي للتنمية"!

الصامل .. قليل!

وفي الذاكرة أن زميلاً جاء إلى الدراسة من دون زوجته وأطفاله، فانضموا إليه في موسم الصيف بعد انتهاء مدارس الأبناء. وكانت زوجته تصر على ألا تأكل إلا لحماً مذبوحاً إسلامياً، فوفره لها أسبوعاً، ثم أصبحت نباتية أكثر من شهر حتى عادت إلى المملكة!

أحد الخبثاء، اكتفى بالتعليق على هذه الحادثة بمثل يستخدمه أهل نجد يقول: "الصامل قليل"، في إشارة إلى أن الثبات على المبدأ يتطلب صبراً، يقل توفره عند الغالبية.

ومن الملامح الغريبة فيما يتعلق بالطعام أيضاً، أن محلات البقالة اليهودية كانت مقصداً للمسلمين في أميركا، حيث يملؤون أكياسهم منها بما يطيب لهم من المنتجات والمعروضات، في طمأنينة وارتياح، لأن كل المأكولات فيها "كوشر"، أي غير محتوية على الخنزير، ومذبوحة بطريقة متوافقة مع متطلبات الشريعة الإسلامية!

إدمان... وهروب
من الجدران

كانت كراتين "البودوايزر"، التي سبق ذكرها في منزل أبي صالح، تمثل نموذجاً لما يفعله بعض الناس، فهي أوعية لأشرطة جَمعت بين توجهات أقل ما يقال عنها إنها متباينة. وكانت تشي بأن هناك مَنْ اشتراها وعاقر ما فيها، ومع الوقت يسهل أن تكتشف مَنْ هام بها حباً!

عندما يخرج شاب قضى حياته، ذات البضعة عشر ربيعاً، بين جنبات مكان وزمان يعجان بأفعال الأمر والنهي، تُقذفُ عليه صباح مساء، حتى لتخالها ملقاة على قارعة الطريق، ويكون الشاب مُلزماً بقائمة مكتظة من المحظورات، فإن محاولته التمرد على هذه القيود قد لا تكون مستغربة إذا ما أُخِذَت في سياقها الطبيعي. وربما بسبب ذلك قالوا: "كثرة الكبت تولد الانفجار".

ويتجاوز بعض الناس الحدود، إما لإيمانهم بأن المقياس الطبيعي، نسبيٌ أصلاً، أو لأنهم يمارسون ما يريدون، دون اكتراث للتنظير، وأفكار القبول والرفض!

أعرف شاباً من بني جلدتنا، ومن عائلة مرموقة، لا يعاني من أي مشكلات اجتماعية، وهو في مطلع العشرينيات من عمره، كان يحتسي من قناني البيرة، واحدة تلو الأخرى، بداية بمنتصف النهار وحتى ساعات الصبح الأولى في أيام الأسبوع، وساعات الصبح الأخيرة في نهاية الأسبوع، دون ملل أو كلل، أو حتى توقف!

خويكم .. منقطع!

ولأن النظام يمنع بيع البيرة، بعد الثانية صباحاً، في (السوبرماركت)، فإن هذا الشاب كان يتصل بعد ذلك الوقت بجيرانه العرب، القريبين والبعيدين، ليوقظهم من نومهم، قائلاً: "خويكم منقطع! ما عندكم بيرة؟!".

قال لي أحد الذين كانوا يتعرضون لإزعاجه: "حاولت غير مرة أن أقنعه بصوت متهدج، إيحاءً تارة وتصريحاً تارات أُخر، باستغراقي في النوم، وأن ليس لدي ما ألبي به طلبه، وعبثاً كنت أحاول، فقد كان يقول لي في كل مرة: اذهب وتأكد من ثلاجتك لعلك تجد علبة أو زجاجة خلف الأشياء وأنت لم تفطن لها... "ابحث بدقة في ثلاجتك يا أخي".

وأضاف:"تخيل أن تباغتك مكالمة، في الثالثة أو الرابعة فجراً، لا لتوقظك من نومك فحسب، بل لتأمرك أن تهب من فراشك، إلى مطبخك لتتفقد ثلاجتك! مع العلم أنك من المفترض أن تكون في قاعة الدرس قبيل الثامنة صباحاً"!

سألته: ماذا كنت تفعل في هذه الحالة؟!

أجاب: "كنت أمتنع حيناً عن استقبال المكالمات الليلية من صاحبي، لكني تراجعت عن هذا الخيار، عندما فكرت أنه قد يكون في مشكلة، يرجو مساعدتي وهو في حالته تلك. وبين قلقي على

دراستي، وتنغيص منامي، وخوفي على صاحبي وصديقي، كنت أسعى لأن أجد طريقاً أسلكه معه".

استمر الشاب في وضعه هذا قرابة سنتين حتى أدمن أو كاد.

بعد عام، رأيته فإذا آثار الصحة بادية على محيّاه، وعندما سألت عن السبب، علمت أنه توقف عن عادته تلك.

المؤلم أنه لم يتوقف عنها برغبة شخصية محضة، بل اضطر للتوقف، لأنه وصل إلى مرحلة صحية خطيرة، بات فيها يتقيأ دما!

في أحيان كثيرة، تُسَر بأنك تستطيع التصرف، قبل أن تحل بك الكارثة الكبرى. لكن، من يضمن لك على الدوام أنك ستتدخل في الوقت المناسب؟!

الأسمر الدجال!

بين الذين عاشرتهم في مدينتنا الصغيرة، شاب يدعى "أبو عمر"، وقد غلبت كنيته على اسمه أيضاً.

يبدو أن انتشار التكني لدى المغتربين، على الرغم من شبابهم وعدم زواجهم، محاولة لتعويض غياب كبار السن، ولو بكُناهم.

إنها شكل من أشكال التحايل على الاغتراب باستدعاء الثقافة المحلية على البعد، ومغالبة الحنين إلى الوطن.

صاحبنا، أبو عمر، باسم الوجه، طَلِقُ المحيا، ذو تقاسيم داكنة، أدهم.

شخصيته حَرية بالتأمل... فلو أسميته "الأسمر الدجال"، ما جانبتَ الصواب أبداً!

للوهلة الأولى، يبدو لك من خلال إيحائه، أنه رجل ولد في أميركا لجدٍ سابع، لكنك مع الوقت تكتشف أن هذا لا يعدو كونه وهماً راودك لفترة زمنية، ولم يلبث أن نفضه الواقع عنك.

شخصية أبي عمر، ظريفة في الحالات العامة، وهو يملأ المكان الذي يغشاه بصوته المجلجل وضحكاته الصاخبة، التي يتردد صداها في أرجاء سقف مكان وجوده، لو كانت هذه الأرجاء فسيحة.

وعندما يُحدثك عن أميركا، وعلاقاته وصداقاته بالأميركيين، تقول: هكذا يجب أن يكون شبابنا، قادرين على الانصهار في بوتقة

المجتمع الأميركي، كي يستطيعوا الاقتراب من لُبّه... ولتستخرج الذهب لابد أن تكون قريباً منه.

ثم لا تلبث عندما تتكشف لك الحقيقة، أن تحمد الله أنك لم تُفضِ بشعورك الأولي عن أبي عمر لأحد، حتى لا ينتقدكَ ويصمكَ بالانطباعية المحضة، والعجلة في تقويم الناس والأشياء.

الطيبة وحدها لا تكفي

يلزمني كي أكون منصفاً، أن أقول: إن أبا عمر من الصنف الذي لا يمارس عاداته مدفوعاً بغير الطيبة، لكن... ما كل مجتهد مصيب.

لا أظن أن أبا عمر يرد طلب أحد بالمساعدة، بل إن الرجل من الطيبة بمكان، يجعله هو من يبادر بعرض خدماته، حتى قبل طلبها!

ليس أكرم من هذا سلوك... لكن أبا عمر، ومع كثرة التعهدات بـ"الفزعة" لا يفعل شيئاً لأحد أبداً، و"كأنك يا أبو زيد ما غزيت"! ربما أصبح الأنسب هنا أن نقول: "وكأنك يا أبا عمر ما غزيت"!

كثيراً ما يزداد إيماني بأن النية الحسنة لا تكفي وحدها، عندما أتأمل سلوك أبي عمر وأقرن سوء نتائج وُعُودِه بطيب نيته.

أزمة سبتمبر تطال أبا عمر

بعد أن عرفنا أبا عمر جيداً، وجدنا أنه يُسوِّق نفسه كأحسن ما يكون، في أوساط الشباب الخليجيين، الذين يصلون حديثاً إلى الولايات المتحدة للدراسة.

وحتى يكتشفه هؤلاء بعد بضعة أشهر، يتحول إلى دفعة جديدة.

لذا كنا نتندر بأن أبا عمر فقد وهجه التسويقي، وبهت إبهاره في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر (أيلول) 2001، عندما تناقصت أعداد الطلبة القادمين للدراسة من البلدان العربية، بعد تشديدات فرضتها واشنطن، في أعقاب إصابتها في أحداث سبتمبر، ونالت الحياة الأميركية جانباً من هذه التشديدات، في الجامعات والمعاهد وتأشيرات الدراسة وإجراءات السفر وغيرها.

سحابة أبي عمر!

قُدرة أبي عمر على خلق انطباعات إيحائية لنفسه وللآخرين غريبة وعجيبة، وعندما تكون الإيحاءات غير مختصة بالآخرين، بل شاملة نفسه أيضاً فهذا عدل، استناداً إلى كون المساواة في الظلم عدل.

كان صاحبنا مُدخناً شرِهاً، ولو قلت لكم أنه أحياناً يشعل السيجارة الجديدة، بما تبقى من عقب السيجارة المنقرضة، لما بالغتُ كثيراً.

أبو عمر كان رجلاً مشهوراً بقرارات حاسمة وقاطعة، يُصدر منها كل يوم العشرات، وضمن هذه القرارات المصيرية، وبعد أن تحول صدره إلى مِرجل يفور بالسجائر، وعندما أخذ السعال منه كل مأخذ، أراد الإقلاع عن التدخين ففعل، لكنه تحول إلى تدخين أرجيلة المعسّل، وقد ساق عشرات المبررات في الحديث عن عملية

توفير البدائل، قُبيل الانقطاع الكامل عن التدخين، منها مثلاً أن تدخين أرجيلة المعسَل أخف ضرراً من السجائر، التي تحمل علبتها في جيبك حيثما حللت وأينما سرت!

وأصبح صاحبنا يُدخن المعسل في الصباح قبل الإفطار وقبل النوم، وبعد الوجبات، وفي الاستراحات التي بين الدروس، وبخاصة إذا أمكنه وقت الاستراحة الوصول إلى المنزل الذي يبعد عن الكُلّية كيلين أو ثلاثة.

وإذا دخّن أبو عمر المعسل، علت المكان سحابة كثيفة من الدخان الأبيض، وانتشرت في أرجاء المنزل حتى تغطيه بالكامل، ما يوحي لك أنك في مكان عدد المدخنين فيه بالعشرات!

وكثيراً ما كنا نداعب أبا عمر، فنقول له إن المكان الذي يُدخن الأرجيلة فيه، يشبه أجواء الفيلم المصري الشهير "الباطنية"، على أن الفارق أن هذا الفيلم من إخراج وإنتاج وبطولة أبي عمر وحده، وهو أيضاً الذي يقوم بكل الأدوار حتى دور الكومبارس!

"غيرانين"... منك!

ينال أبو عمر القسط الأكبر من تعليقات الزملاء والشباب على سلوكه، وهو ذو صدر رحب، يجعله يتقبل النقد والتعليق والسخرية بأريحية تُحسب له، وهو لا يزيد في تفاعله مع التعليقات عليه عن إطلاق ضحكته المجلجلة.

لكنه يُسِرُ إليكَ إذا كنتما منفردين، بأن سبب تعليقات الزملاء عليه، تعود إلى الغيرة من تميزه العلمي، وقدرته على إتقان الإنجليزية!

يبدو هذا التعليق مؤثراً، وقابلاً للقبول والتصديق، ولتتأكد من صحة ذلك، عليك أن تعلم، بأنه قضى منذ قدومه إلى أميركا أكثر من ثمان سنوات، دون أن يحصل على شهادة البكالوريوس، متنقلاً بين ستة تخصصات!

ولو أن الجامعات تمنح لقب العميد لغير أعضاء هيئة التدريس، لنال أبو عمر اللقب عن جدارة واستحقاق!

لخمة ولكمة... في آن!

كان شيئاً من ذكر أبي عمر، الذي بلغت سمعته آفاق البلدة التي كنّا نعيش فيها، وهناك كانوا يسمونه أحيانا "لخمة"، نظير قدرته على "لخم" المرء، للوهلة الأولى. ومن الطرائف، أن هذا اللقب، بات كثير من الأميركيين، القريبين من المجتمع العربي، يستخدمونه في تعاملهم مع أبي عمر على سبيل الدعابة. لكنهم ينطقونه مبدلين الخاء كافاً لتصبح الكلمة: (لكمة)، فتبدو كأنها اللكمة، التي يسددها الملاكم لخصمه. ويبدو المعنى مناسباً، وخصوصاً إذا كنت ممن ضرب لهم أبو عمر بكف على صدره، كناية عن "ازهل" الموضوع، أي انس هم التفكير فيه، واعتبره منتهياً، ثم يتبين لك أنك وقعت ضحية، وسقطت في شِراك فوضوية أبي عمر، ووعوده غير المتحققة، واستعداداته المتواصلة، لتنفيذ أشياء ليس أهلاً لها... عندها ستدرك أن أبا عمر لكمة بالفعل... وخطافية أيضاً!

فحولة شرقية
في بلاد الغرب

الغالبية العظمى من الشباب الخليجي عموما، والسعودي خصوصا، الذين يواصلون دراستهم في الولايات المتحدة، هم من العزاب. ذلك بالنظر إلى أنهم يأتون إلى أميركا بعد إنهاء الثانوية العامة، ونادراً ما يكون متزوجاً مَنْ عمره يقارب السابعة عشرة أو الثامنة عشرة.

ومعظم الذين يأتون من هؤلاء الشباب، إلى ديار الغربة، يرسمون في أذهانهم تصورات ذهنية مسبقة، لما يمكن أن تكون عليه حياتهم في أميركا، وبالذات في ما يتعلق بنوع العلاقة مع الجنس اللطيف.

ولا يخرج هذا التصور في الغالب عمّا ترسمه هوليود في الأذهان عن الحياة الأميركية.

ليس سراً أن كثيراً من الشباب يتوق إلى التعرف على صديقة أميركية، تمارس معه الشق الأنثوي من بطولة مسلسله الذهني: "فحل في بلاد الغربة"!

لكن هؤلاء كثيراً ما يصدمون بمعوقات تمنع تحقيق خيالاتهم.

أول هذه المعوقات هي اللغة، فالخليجي بعامة والسعودي على وجه الخصوص، نِتاج عملية تعليمية لا تجعل اللغة الأهم في العالم "وهي الإنجليزية"، خلال بضعة عقود ماضية، ولبضعة عقود مقبلة من الزمان، في رأس قائمة الاهتمامات. وبالتالي فإن هذا الشاب، بحاجة إلى سنة أو سنتين من عمره، يقضيها في دراسة اللغة، قبل الالتحاق بإحدى الجامعات الأميركية، وهو خلال

هذه المدة لن يجد إلى جانبه في فصول الدراسة زميلة أميركية، وعليه فإنه سيبحث خلال هذه المدة عن بديل، والبديل لن يخرج في الغالب عن زميلات الدراسة.

مكاتب استقدام... أم معاهد لغة؟!

يجد الدارسون في الولايات الأميركية، التي تقع إلى الشمال الغربي حيث درستُ، فصول دراسة اللغة مكتظة بالآسيويين: يابانيين، وكوريين، وتايوانيين، وصينيين، بل وإندونيسيين أحيانا.

ومن النادر أن تجد طلبة من جنسيات أوروبية، أو من أميركا الجنوبية، كتلك التي قد تكون في الولايات الأخرى.

هذا الواقع لا يَمرُ مرور الكرام على شبابنا، ولا بد أن تناله سياط تعليقاتهم، وهم كثيراً ما يصفون معاهد دراسة اللغة، بأنها مكاتب استقدام، في إشارة إلى العمالة المنزلية في بيوت الخليجيين، التي تنتسب إلى جنسيات آسيوية، تتشابه في الأشكال - بالنسبة إلينا على الأقل - مع زملاء وزميلات دراسة اللغة.

ربما كان هذا الوصف في اللاوعي، مستنداً إلى المأثور: "اطلبوا العلم ولو في الصين"، غير أن واقع الحال يشير إلى أنها يجب أن تكون: "اطلبوا العلم ولو مع الصين".

هذه التعليقات يتداولها الزملاء خلسة، حتى لا يكونوا في موضع حرج أولاً، وثانياً، كي لا يقعوا تحت طائلة القانون، ما يودي بهم إلى ما لا تحمد عقباه، نظير الاتهام بممارسة العنصرية.

إن طاوعك الزمان... وإلا طاوعه!

الغريب، أن التعليقات هذه، سريعاً ما تذهب أدراج الرياح، عندما يجد أحد الشباب، زميلة مقبولة الشكل لتكون صديقة له، مُتخذاً من المثل العامي "الجود من الموجود" سلوة له.

يجد العرب في الفتيات الآسيويات في هذه الحالات، مميزات من الصعب توافرها في نظيراتهن الأميركيات، فهن ينتسبن إلى بيئات أكثر محافظة من البيئة الغربية، وبالتالي فإن فيهن من الحياء ما يجد لدى شبابنا قبولاً، ولو من باب التكيف مع المثل الشهير: "يا عنب حامض".

أعرف شاباً كان يخرج مع أصدقائه للسهر نهاية كل أسبوع، من دون صديقته اليابانية، التي كانت تلزم المنزل بكل قناعة لتحصل على رضا المحبوب!

حتى في بلاد الغرب نمارس بامتياز ذُكوريتنا، دون أن يرف لنا جفن إحساس بسطوة هذه الذكورة على سلوكنا!

البيتزا أسرع من الإسعاف!

شاب آخر صارح ذات فجرٍ، صديقته اليابانية بضرورة انفصالهما، فالتهمت علبة كاملة من الحبوب المنومة في محاولة للانتحار، احتجاجاً على ما فجعها به صاحبنا، ولم تنجدها إلا الدقائق الفاصلة بين الاتصال بفريق الـ 911 (الإسعاف)، وحضورهم مدججين بمعدات طبية إسعافية أشبه ما تكون بمستشفى صغير متنقل!

وعندما يأتي ذكر الإسعاف في الولايات المتحدة، يعنُّ لي مقارنة خدماته بما يحدث في عالمنا العربي، وأتذكر إنهاءً لحبل أفكاري، الدعابة التي تقول أن البيتزا تصل في بلادنا أسرع من الإسعاف فأكف عن التفكير.

ومما يتردد من قصص، في هذه المدينة وغيرها، أن سيدة آسيوية في بداية الثلاثينيات من عمرها، جاءت لدراسة اللغة فصلاً واحداً، تعرفت خلاله على شاب سعودي في العشرينيات، فتركت عائلتها المكونة من زوج وطفلين مدة عامين، في بلدهم دون زيارة، حتى انهارت علاقتها مع هذا الشاب!

لا يبدو أن إغراء شبابنا هنا لفرط رومانسيتهم، فكثيراً ما استمعت إلى تعليقات من نساء سعوديات تجاه الرجل السعودي، تنصب على أن بين السعودي والرومانسية "وقفة نفس"!

لكن نماذج كثيرة من ثقافات مختلفة، تنبهر بثقافة اجتماعية ترمي بمقاليد السيطرة المنزلية، من حيث الإجمال في أحضان الرجل.

وربما كانت القصة لا تعدو كونها توقاً لممارسة تقاليد اجتماعية جديدة ومختلفة!

هل الموضوع برمته هو إيقاظ لحاسة الاكتشاف والمعرفة عند الإنسان؟!

أصدقكم... لستُ أدري!

الكبسة...
وسيلة التشبيك!

أساليب الشباب التي يستخدمونها لفتح طرق مؤدية إلى إنشاء علاقات مع فتيات في الولايات المتحدة متعددة سواء كانت هذه العلاقات مع فتيات من جنسيات آسيوية أو مع فتيات أميركيات.

ويحار الشاب الذي يجعل قضية كهذه هدفاً أو اهتماماً رئيساً بالنسبة له، في اختيار الطريقة المناسبة التي يمكنه من خلالها الفوز بقلب ابنة حواء أحياناً، وما تيسر من جسدها أحياناً أخرى!

بعضهم يستخدم ذات الطرق التي كان يستخدمها مع الفتيات في بلده الأصلي، ولا حاجة لنا أن نذكر أنه سيبوء بالفشل في تحقيق مراده، إذا ما سار في هذا السبيل بطبيعة الحال.

المفارقات الكبيرة بين الثقافات، عادة ما تكون مصدراً خصباً لتعليقات ساخرة، منها أن الشباب لا يترددون في وصف مَنْ يقضي مدة طويلة في التفكير بأن طرق التواصل مع الجنس الآخر في أميركا ليست بعيدة عنها في منطقتنا بـ"القروي"! ويداعبونه عندما يرون فتاة جميلة، بأن عليه أن يقوم إليها ويضع رقم هاتفه في حقيبتها اليدوية!

أو يشيرون عليه عندما يطيل التفكير في فتاة، بأن يقرأ عليها قصيدة غزلية لنزار قباني، أو أخرى لخالد الفيصل، أو بدر بن عبد المحسن.

متى تغمز سنارة الغرام؟!

يلعب الشباب على وتر اهتمامات هذه الشعوب وحرصها على التعرف على عادات وتقاليد جديدة، لفتح النوافذ للضوء الذي قد يأتي محملاً بما يشتهي أصحابنا، لعل سنارة الغرام تغمز، ولو كان الصيد سمك السردين!

عبارة شهيرة يستخدمها الشباب هنا على سبيل الدعابة والتندر، باتت إشارة واضحة إلى أن المرحلة تعني بداية السعي في إنشاء علاقة جديدة مع أنثى.

Do you want to try Arabic food?

على غرار المثل الشعبي القائل: إن أقرب طريق إلى قلب الرجل معدته، فقد أضحى الشباب يطبقون هذا المثل بالمقلوب على الفتيات في أميركا فيقولون: أقرب طريق إلى قلب الفتاة الأميركية... كبستنا!

عبارة يرددها الشاب بلكنة بدوي حديث العهد بتعلم الإنجليزية، ويتبعونها بابتسامات وضحكات تنطوي على الكثير من الخبث.

ومن النادر أن تكون الإجابة بالنفي، على أن القبول، لا يعني بالضرورة، أن سنارة صاحبنا قد غمزت للدلالة على صيد ثمين، بالقدر الذي يعني أن علاقة بدأت تفتح الاحتمالات مُشَرّعة على

كل شيء، بدءاً بعلاقة حميمية التواصل، إلى أقصى درجة متصورة، بين الدوام والانقطاع، وانتهاءً بعلاقة مشابهة لعلاقة أي ساكن في حيٍ عربي بالبقال، الذي يقع دكانه في نهاية شارع موحشٍ ومظلم!

قد تبدو الدعوة في البداية غير مثيرة للاستغراب، فإنها لا تكون فردية للفتاة فقط، بل تكون لمجموعة مرافقة، من الشباب العرب، وزميلات الدراسة أو السكن.

وربما بلغ الداعي درجة عالية من الذوق، فيجعل اختيار ضيوف الحفلة منوطاً بالمحتفى بها، كي تُحس بشكل أكبر بقيمة الدعوة!

صخبٌ... ومخالفات!

وليس سراً أيضاً أن الحفلات التي يقيمها الشباب العربي بشكل دوري، والتي تكون صاخبة أحياناً تتخللها مخالفات نظامية، ولعل من هذه المخالفات، تقديم المشروبات الكحولية لَمَنْ هم دون الواحد والعشرين عاماً من العمر، وهذا ما يعاقب عليه القانون، بينما يتخذه الشباب عنصراً من عناصر الإغراء في حفلاتهم.

عندما يتسنى لك حضور إحدى هذه الحفلات، وترى كيف يتعاطى معها غير العرب للمرات الأولى، تتذكر مشاهد الغربيين والشرقيين حول أهرامات الجيزة مثلاً، أو في صحراء الربع

الخالي. فعلامات الاستكشاف بادية على الوجوه، والدهشة حاضرة بقوة، وكاميرات التصوير لا تتوقف عن التقاط المشاهد لصُنع الكبسة، أو لسُفرَة تفرش على الأرض لتكفي العشرات، أو لهؤلاء المدعوين، وهم يأكلون الأرز بأيديهم للمرة الأولى في حياتهم، وقد جلسوا القرفصاء على الأرض منتصبين كالأطفال!

ويتبارى الشباب في فنون التواصل مع الضيوف، لبيان أنسب طرق الأكل باليد، أو الجلوس على الأرض، أو لبس ثوب خليجي غير مكوي، أو حتى شماغ أو غترة أو عقال تكتنزها خزانة ملابس، ولا تظهر إلا في عروض الملابس الوطنية في الجامعة، أو في الحفلات التنكرية!

عيد ميلاد... شهري!

من أجل استحداث مناسبة لدعوة الأميركيين، لم يجد شبابنا أنسب من أعياد الميلاد التي يتفاعل معها الأميركيون بشكل كبير، فأصبح كل واحد من الطلبة المغتربين يقيم عيد ميلاد شهري تقريباً، وعندما يتساءل القوم، ألم يكن الاحتفال بعيد ميلاد فلان، قبل شهر أو شهرين، يتبارى الجميع للرد، بأن لدينا تقويماً شمسياً، وتقويماً قمرياً وآخر شمرياً (أي أنه يجمع بين الشمس والقمر)، ولذلك فنحن نحتفل بمولدنا بكل التواريخ، مع أن القصة لا تعدوا كونها بحثاً عن مناسبة لتوجيه الدعوة للآخرين!

البدويان!

كان في مدينتنا، التي نعيش فيها في الولايات المتحدة، بدويان لافتان للنظر تستحق قصتهما أن تروى.

ينتسب عبدالله وعبد الرحمن، إلى قبيلة بدوية عريقة، تمتاز بكثرة أفرادها في السعودية.

عبدالله كان في منتصف الثلاثينيات من عمره، وابن عمه عبدالرحمن في أواخر العشرينيات. كان الأول أسبق في الوصول إلى الولايات المتحدة ببضع سنوات. جاء منتدباً من جهة حكومية للدراسة. أما عبدالرحمن فجاء من تلقاء نفسه، وكان زاده في السفر للدراسة في أميركا، مالاً استدانه من مجموعة أشخاص، بعد أن رفض والده السبعيني دعمه مالياً على الرغم من ثرائه، وكانت هذه القصة غصة في حلق عبدالرحمن، رواها لكثيرين من أصحابه، وبالذات في لحظات الصفاء والمصارحة والحنين إلى الوطن، وما أكثرها بالنسبة للمغتربين.

قرر عبد الله لبضعة أشهر، تجاهل وجود ابن عمه عبدالرحمن في المدينة نفسها وكأنه لا يعرفه، أو كأن أحداً يعنيه، أو تربطه به أدنى رابطة، لم يصل إلى هذه المدينة، ولسان حاله يقول: لقد هربت آلاف الكيلومترات من هذه الثقافة المجتمعية، لأعيش بالطريقة التي أختارها لنفسي، ولن أقبل أن تفرض هذه الثقافة نفسها علي فرضاً، استناداً إلى سياسة الأمر الواقع!

الحقيقة أن جفاء الأول تجاه ابن عمه، وعدم تفاعله مع وصوله، ولا مبالاته بوجوده في المدينة ذاتها طوال بضعة أشهر من الزمان، كان موضع استغراب كل من يعرف الاثنين.

كانت شخصية عبدالله، أقوى بكثير من شخصية عبدالرحمن، والأخير كان يعتقد أن مجرد وصوله إلى أميركا، أرض الأحلام بالنسبة إليه، وإلى كثيرين مثله، يكفي... دون خوض في التفاصيل.

كان يهرب من التفاصيل، لأن الخوض فيها يجعله بحاجة إلى مواجهة الواقع، والمواجهة بطبيعة الحال مؤلمة، فلا أفضل من الهروب.

أحد مظاهر هروبه، كثرة حديثه المستفيض عن نفسه مؤدياً دور الضحية. وفي القصة يأتيك أن والده غني لكنه شحيح، بدلالة أن ابنه في الولايات المتحدة اقترض زاد الرحلة ومصاريفها، من جملة أصدقاء، وهو يعيش حالة متعثرة، مع أن ابن عمه موجود في المدينة نفسها، ويدير له ظهر المِجَّن، وكأنه لا يعنيه... ويختم هذه المنظومة من الحديث بتأكيد أنه لم يقطع كل هذه المسافة بإصرار إلا ليستمر هنا، وأن تراكم المعوقات لن يُثنيه عن مواصلة السير في سبيل تحقيق غايته!

تبدو الجملة الأخيرة من حديث عبدالرحمن مليئة بالإصرار والعزيمة والكفاح، وهي بلا شك تُلزم المستمع إلى حديثه بالتعاطف معه، وربما عرض المساعدة المادية، أو المعنوية عليه، وكلٌ حسب استطاعته.

لكنك مع الوقت ستكتشف -وربما تُصدم بهذا الاكتشاف- أن الحديث عن الإصرار هذا، ليس إلا حيلة نفسية يمارسها دحيّم (لقب عبد الرحمن) مع نفسه، كي يبرر تقصيره!

وإذا سألت عن التقصير؟ أجبتك: بأن دحيّم أمضى عاماً كاملاً في أميركا، وربما لم يتقن من الإنجليزية سوى بضع مفردات، وربما حمل نصفها في ذاكرته من السعودية.

كان يمضي ليله في السهر ونهاره في النوم، وكم كان حديثه بالإنجليزية جميلاً، حيث يصوغ الجملة الإنجليزية بقالب يذكرك بالصحراء، عندما ينطقها بلهجة بدوية متقعرة، وهو ما كان محل تندر وسخرية أصدقائه.

الشهادة لله، أن عبدالرحمن كان واسع الصدر، متقبلاً المزاح، حتى لو كان هو محور النكتة، ولم يكن يضيق بها أو يشمئز منها.

أهم مقومات عبدالرحمن بالإضافة إلى رحابة صدره، أنه كان يتمتع بجسد رياضي وقوام ممشوق، وكثيراً ما تمنى الشباب أن يحصلوا على هذا الجسد، لأن الأجسام الرياضية، كانت إحدى مطالب الفتيات في فرسان أحلامهن.

عندما يتحدث دحيّم الإنجليزية المُكسرة تكسيراً فادحاً يجد مَنْ يعلق عليه بالمثل القائل: "يعطي الحلق للي بلا ودان".

هدف...
يضيع في الزحام

جُل شبابنا المغتربين في هذه الديار، جاؤوا بهدف معلن رئيس، هو التحصيل العلمي.

وعندما أقول مُعلن، فأنا أعني أن هناك أهدافاً أخرى غير معلنة يعلمها الشباب ويعونها... يعلنونها تارة، أو يخفونها، أو حتى يمارسونها في اللاوعي، ويكتنزونها في عقولهم الباطنة، ويترددون في كشفها.

وللحقيقة، التعلم في كل بلاد العالم، وفي هذه البلاد خصوصاً، لا يقتصر على قاعات المحاضرات وفصول الدرس، وما زلت أتذكر مقولتين قالهما لي صديقان عزيزان: الأولى سمعتها من الصديق داود الشريان: عندما تكون في أميركا لا تتعلم من الجامعة فحسب. بل الأهم هو تعلمك من أسلوب المعيشة، وهي ما يصطلح على تسميته "Life Style" .

أما المقولة الثانية فقد قالها الصديق الراحل صالح العزاز - رحمه الله- عندما كان يقضي مدة علاجه في إحدى المستشفيات الأميركية، ولفت إلى أنه لا يفتأ يتعلم في هذه البلاد سواء... في الشارع... أو (السوبر ماركت) أو عيادة العلاج أيضاً!

وعند استعراض أوضاع شبابنا، مع الدراسة هنا، نجد أنها لا تبتعد عما حققوه في كل شأن حياتي آخر، فمقلٌ ومستكثر، ولكلٍ وجهةٌ هو موليها.

أعرف في مدينتي الصغيرة، شاباً سعودياً يدعى طلال، قال لي مرة عن نفسه إنه كان يحصل على علامات متوسطة في دراسته قبل الأكاديمية، عندما كان في بلاده، ولما قدم إلى أميركا أنهى دراسة اللغة في ثلاثة أشهر. ليس لخلفية لغوية مسبقة، بل لأنه قرر أن يتفوق على نفسه. فعندما أنهى المستوى الأول من دراسة اللغة، (وهو مستوى عادة ما يصنف بأضعف الفئات)، لم يقض إجازته القصيرة في الترويح عن نفسه، بل عمد إلى مكتبة الجامعة، عاكفاً على قراءة كتبٍ ذات مستويات عالية، حتى صنّفه الاختبار، بداية الفصل التالي، في المستوى الخامس. وما هو إلا شهر واحد قضاه فيه، ثم لم يحتج إلى مزيد جهد أو عناء، في اختبار "التوفل"، المؤهل للدراسة في الجامعات الأميركية، ففتحت الجامعة أبوابها له على مصراعيها. وما فعله طلال في دراسة اللغة، فعله في دراسته الجامعية أيضاً.

قال لي: "لا أدري ما الذي غيرني؟! لكني أعشق التحدي، وقد صممت ألا يتفوق عليَّ أميركي قط! إذ لا أرى فيهم ما يستحق التميز، عليَّ شخصياً، أو على أي عربي آخر. وكان هذا كفيلاً، بالحصول على درجات نهائية، في معظم المواد، والبقية قاب قوسين أو أدنى، من إحراز أعلى العلامات"!

زوجان تحت العشرين

لم يُمض طلال أكثر من عامين في أميركا، بعد تخرجه من الثانوي، حتى عاد إلى المملكة في الصيف، وتزوج، وعاد بزوجته إلى

أميركا، وهما آنذاك، يتعاونان في بناء حياتهما على الرغم من أنهما لم يتجاوزا العشرين من العمر!

كلمات تحدد المصروف!

وما زلت أتذكر بدراً، الذي جاء وهو لا يزال يافعاً بعد، وقد أنهى الثانوية في الرياض، وكان يختلس الوقت من زملائه، ليذهب إلى معمل الكمبيوتر، موافياً والده عبر الإيميل بعشرين كلمة جديدة يتعلمها كل يوم، كي لا يخصم الأب من المصروف الشهري، الذي يقتات منه هذا الشاب في الغربة!

كان يلزم بدر وفقاً لاتفاقه مع والده، أن يرسل إليه، بالبريد الإليكتروني عشرين كلمة إنجليزية جديدة كل يوم، يفترض أن يكون صاحبنا حفظها وضبطها، كي لا يقتطع الأب من مصروف ابنه شيئاً!

بدر ينتمي إلى أسرة غنية مادياً، ووالده مقاول معماري كبير، بنى مطاراً في عاصمة عربية!

هذا النموذج المتفوق علمياً ليس بِدعاً بين شبابنا، بل إن كثيراً منهم حصل على تمويل لمصاريف دراسته "Scholarship" من قبل الجامعة التي يدرس فيها نظير تفوقه.

كان عبدالله، أحد هؤلاء، إضافة إلى تميزه الدراسي، أشرف

على منتدى ثقافي عربي في الإنترنت، وهو منتدى جسد الثقافة(*).

عاد عبدالله إلى السعودية وعمل في شركة النفط الكبرى أرامكو، وهو الآن أحد رؤساء إداراتها.

ويؤكد ذلك أن هناك مَنْ يحصل على الفرصة نفسها في جامعات عريقة أكاديمياً مثل جورج تاون، أو هارفارد، أو كولومبيا، وغيرها.

نموذج مختلف!

أما النموذج المضاد، الذي يقف أصحابه في الضفة الأخرى المعاكسة للنماذج السابقة، فليس صعباً اكتشافه ولا الحديث عنه بطبيعة الحال، ولا يحتاج أحدنا لمعرفة هذه الفئة إلى أكثر من نظرة عابرة يلقيها على الدارسين، أو بالأحرى الساكنين هنا، ولو كانت هذه النظرة غير متأنية!

ما لقيت احداً يفهمني!

أعرف زميلاً في الولاية التي سكنتُ فيها، مر خلال سنوات دراسته الثلاث في أميركا بأربع جامعات في ثلاث مدن، وغير تخصصه ثلاث مرات أيضاً!

(*) http://www.jasd.net/

وعندما تسأله عن السبب عرضاً يجيبك بثقة أنه لم يجد في هذه الجامعات مَنْ يفهمه!

وعليك أن تُقِر بمسلمته تلك، ولو أنك تعلم يقيناً، أن أحدث هذه الجامعات عمراً يبلغ 125 عاماً، يتقاطر عليها الطلبة من كل حدب وصوب، لكنهم لا يشتكون من أزمة عدم الفهم هذه!

كان لنا صديق عُرف بتعليقاته الساخرة، وقد علّق على صاحبنا، الذي لم يفهمه أحد قائلاً: "الحمد لله أننا في أميركا، ولو كنا في بلادنا لعرض صاحبنا نفسه على أحد المعالجين بالرقية، زاعماً أن فيه نفس"، في إشارة إلى أنه معيونٌ محسود.

قصصت القصة لزميل ساخر، فقال: ذكرني صاحبك بالرجل الذي تزوج وطلّق تسع مرات، فلما سئل: لماذا؟! أجاب: كلهن كن عاقرات!

يؤكد لك ما تقدم أن هناك نموذجين من الدارسين: متفوقين ومتوقفين، أما عن ماذا يتوقفون؟! فلا أحد يدري تماماً.

ربما عن اقتناص الفرص... ربما!

أما الوسط، بين المتفوقين والمتوقفين، فهم الغالبية!

درجات تؤهلهم للاستمرار في تحصيلهم الدراسي، بمعدلات طبيعية، حتى مقارنة بين كل جنسيات الدارسين في الولايات المتحدة.

أحداث سبتمبر:
البلاي ستيشن والجواز السعودي!

كثيرون عاشوا في الولايات المتحدة للدراسة أو لقضاء إجازاتهم فيها طوال صيف. وعندما تسألهم عنها، يجيبونك بعد إطلاق تنهيدة: "أيييه.. ذاك أول... أميركا تغيرت بعد سبتمبر، أو غيروها علينا"!

كان عدد السعوديين في المدينة التي كنت أدرس فيها لا يتجاوز عدد أصابع اليد، وقال لي صديق قبل أيام إنهم أصبحوا الآن نحو مئة وخمسين سعودياً. هؤلاء ضمن أكثر من 30 ألف سعودي ابتعثتهم الحكومة في 2006 محاولةً لترميم ما حاول أسامة بن لادن وشلته تدميره في العلاقات السعودية الأميركية.

قبل ساعات من صباح الحادي عشر من سبتمبر كان الجواز السعودي في الولايات المتحدة أهم وأكثر قيمة من الجواز البريطاني. نعم السعودي أهم من البريطاني، وقد كنتُ كما كل السعوديين إذا سُئلنا عن جنسيتنا ننفخ صدورنا أولاً، ثم نقول - بتواضع-: سعوديين.

لم أذكر أن أحداً علق بتعليق سلبي أبداً. وبات من المألوف أن تجد للأميركي قريباً من الدرجة الأولى أو الثانية عمل في السعودية، وحمل معه من بلادنا عبق الصحراء، وذكريات الأصالة، وحديثاً يفوح برائحة الهيل والكرم والطيب.

عندما وقعت أحداث سبتمبر، كنت نائماً، فقد كان توقيت غرب أميركا متأخراً ثلاث ساعات عن توقيت الشرق حيث وقعت الأحداث في نيويورك وواشنطن.

كان المتصل الصديق محمد التمياط نجم المنتخب والهلال السابق. محمد مثل أشقائه صفوق ونواف وزيد، رجال يقطرون أدباً. بث محمد اعتذاره على استحياء لأنه أيقظني، ثم تساءل بقلق: كيف حالكم، وعسى ما جاكم شر من الأحداث والتفجيرات؟.

قلت له: "وش تفجيراته"؟!

قال لي: تفجير في نيويورك! قلت له بثقة النائمين: تلقاها قنبلة في زبالة يا محمد! لا تهمك. أعترف الآن أني أطلقت تصريحات تافهة، لا ترتكز إلا على المعلومات التي حصلت عليها من أضغاث الأحلام.

واصل محمد بأدبه الجم: تركي أظن المسألة أكبر من الزبالة (تكرمون) بشوي! فيه طيارة ضاربة عمارة، وطيارة ثانية ضاربة عمارة ثانية!

واصلت التصريحات لكني استفزعت بالسخرية، وقلت لمحمد: أبو بندر، أنت مكثر لعب بالبلاي ستيشن هاليومين؟!

رد محمد: طيب افتح التلفزيون، وابمد لك يد البلاي ستيشن الثانية تلعب معي!

قفزت من سريري إلى التلفزيون، وفتحته وكان على قناة أفلام لكنها تحولت إلى بث الأخبار نقلاً عن قناة إخبارية.

العلامة، علامة قناة أفلام والمشهد لطائرة تصطدم في مبنى التجارة العالمي، وهو مشهد لا يمكن حتى تخيله سينمائياً. وقعت في حيص بيص، بين الخبر والبلاي ستيشن وقناة الأفلام!

أردت تغيير القناة إلى قناة إخبارية فضغطت على زر الإغلاق في الريموت مع الريشة!

عدت وفتحت التلفزيون وقلبت القناة، وكانت كل القنوات تنقل الحدث، حتى قنوات أفلام الكرتون. كان العنوان الذي توافقت معظم المحطات على كتابته للحدث: أميركا تحت الهجوم!

كانت المفارقة عجيبة، فقد عدت قبل يومين من إجازتي الصيفية، التي قضيتها في الرياض، وكانت والدتي، -حفظها الله- تصر عليَّ أن أبقى يومين إضافيين في الرياض، وبخاصة وأن الفصل الدراسي بقي عليه آنذاك أكثر من أسبوعين، وقد أصررت على السفر لسبب رئيس، وهو أني أريد الانتقال من شقتي إلى شقة جديدة، وأحتاج إلى الوقت كي أرتب ذلك.

أتخيل الآن لو أنني أجلت سفري يومين، فقد كان حجزي على ذات الطائرة، التي أسقطت في بنسلفانيا، ضمن مجموعة الطائرات التي استهدفت أميركا.

ربما لو كنت أنا وزوجتي وأطفالي ضمن الركاب، لكانت التحليلات تتحدث اليوم عن تغيير في استراتيجيات القاعدة باتجاه استخدام الأطفال والنساء في العمليات الانتحارية، وأنا وأطفالي... "يا غافل لك الله"!

يوم أصبح السعوديون..
هنوداً ولاتينيين!

فقت من نومي صبيحة الأحداث كما أشرتُ، على اتصال محمد التمياط الذي كان يريد الاطمئنان علينا وبخاصة وأن شقيقه زيد يقيم في المدينة التي أقطنها.

كنت أسكن مؤقتاً في فندق قبيل بداية الفصل الدراسي الجديد بنحو أسبوع، منتظراً انتقالي إلى شقتي الجديدة أنا وأطفالي.

استيقظت زوجتي وأخبرتها بالحادث. فوجهت إليّ عشرات الأسئلة، وفعلت بالعكس الشيء ذاته. كنّا نوجه الأسئلة كأحد وسائل التعبير عن الدهشة والوجوم اللذين لازما كل من تابع الحدث أو علم به، ليس في الولايات المتحدة وحدها، بل في العالم كله.

عندما هبطت زوجتي إلى مطعم الفندق لتفطر مع الأطفال كان الجميع ينظرون إليها وهي محجبة، ثم ينظرون إلى الشاشات التي كانت تبث بين الحين والحين صورة أسامة ابن لادن، على اعتبار أنه هدد أميركا قبل فترة، ما يجعل احتمال كونه المتسبب في الحادث وارداً آنذاك.

كانت النظرات تربط بين حجاب زوجتي "أشواق" من جهة، ومصدره الدين الإسلامي، وخطابات ابن لادن وتهديداته التي يردد فيها زعمه أنه ينطلق فيها من الإسلام من جهة أخرى!

وسط تلك الأجواء المشحونة بالريبة، تركت زوجتي المكان وصعدت إلى غرفتها قبل إتمام إفطارها.

في المقابل، كان مجموعة من الشباب الخليجيين، ومعظمهم من السعوديين تحديداً، يقضون الوقت في بيت أحدهم في تحليل الحدث، ومتابعة القنوات الإخبارية التي تفننت في المتابعة واستضافة المحللين والخبراء، ومن يعرف في الموضوع شيئاً، ومن لا يعرف فيه شيئاً أيضاً!

قبل اعتراف ابن لادن بأنه وقومه، خططوا ونفذوا أحداث الحادي عشر من سبتمبر، كانت التكهنات تدور حوله والقاعدة أولاً، وحول أميركيين متعصبين، عنصريين، مثل مرتكبي تفجيرات أوكلاهوما، قبل سنوات من ذلك الوقت ثانياً. بل ذهبت بعض التحليلات بعيداً فقالت: إن الجيش الأحمر الياباني هو الفاعل. وقيل إن متطرفين من الصرب هم الجناة، وقد رجح محمد حسنين هيكل الفرضية الأخيرة!

كنا نتدارس الوضع، تحت هاجس الرغبة في أن لا يكون الفاعل عربياً أو مسلماً، ليس محبة في القاعدة أو ابن لادن، بل لأننا نعرف كيف سينعكس الحدث علينا ونحن هناك أولاً، ثم على المسلمين عامةً.

في اليوم الثاني، قررت أنا وزوجتي، أن من الأنسب لها ملازمة البيت، وأن لا تخرج منه حتى إلى الدراسة، خشية من ردود فعل

الأميركيين والمتعصبين منهم بالذات. بقيت كذلك نحو أسبوعين، وبعدها وفيما كانت تترقب أن لا تستفز أحداً قابلها الكثير من الناس رجالاً ونساءً، لكنهم كانوا يسألونها: هل ضايقك أحد من أجل التزامك بحجابك؟ بل لقد عرض عليها محامون وأساتذة جامعة، وعاملون في مؤسسات المجتمع المدني أرقام هواتفهم، للاتصال بهم في حال تعرضت لأي إساءة عنصرية. تكرر ذلك معها بضع مرات. بقينا نحو عام بعد الأحداث، في الولايات المتحدة، ولم تصب -بحمد الله- بأذى.

أما الشباب فقد قرروا أن لا يسير أحد منهم بمفرده أبداً، بل اختاروا السير في مجموعات كبيرة، كي لا ينفرد بأحدهم، من يحاول الإساءة ترصداً أو مصادفة.

وبعد أن كنا نعلن أننا سعوديون على الملأ بفخر واعتزاز، أصبحنا بعد الحادي عشر من سبتمبر، وحرصاً على سلامتنا نبحث عن جنسية أخرى ننتسب إليها للتمويه. مَنْ يشبه المكسيكيين قال إنه مكسيكي، ومَنْ كان فيه مسحة هندية تهند، ومنا مَنْ اختار دولة من دول أميركا الجنوبية. كان الوضع مريحاً إلا في حالة كون محدثك يتحدث لغة البلد الذي انتسبت إليه!

كانت الأحداث فرصة للتعريف بثقافتنا أكثر، فزوجتي طلبت منها مجموعة من السيدات، بينهن يهوديات ومسيحيات، الانضمام لجلسة نقاش كل أسبوعين للحديث عن الإسلام والسعودية، وقد فعلت.

وقد حرصنا بشدة على المشاركة بعد أسبوع من الأحداث في مظاهرة، احتجاجاً على التفجيرات، وانتصاراً لضحايا سبتمبر. ومع أننا حضرنا والخوف يملأ قلوبنا من ردود فعل غاضبة، إلا أننا كنا نريد أن نعلن تضامننا مع قوم قُتلوا باسمنا، ولم نقبل ذلك.

كانت الاتصالات التي تأتينا من أهلنا في السعودية للاطمئنان علينا تُخيفنا أكثر مما نراه على أرض الواقع. إذ إن الصحف المحلية كانت تبرز الاعتداءات وتضخمها على السعوديين بالذات، حتى ظن أهلنا أنه سيُعتدى علينا واحداً بعد واحد وكأننا نقف في طابور الانتظار!

وعندما أتذكر أحداث سبتمبر (أيلول) المشئومة، فلأنها غيرت وجه العالم كله، وستغير أكثر، وهي حدث من الأحداث القليلة التي كانت تحولاً تاريخياً في مسار الأشياء والأحداث والشخصيات والتاريخ.

أمضيت في الولايات المتحدة بعد الحادي عشر من سبتمبر نحواً من ثمانية أشهر وقد لمست الفارق بين وضعنا كعرب ومسلمين وسعوديين بالذات قبل سبتمبر وبعده.

وكما أشرتُ إلى أننا كنا مجموعة من الطلبة الخليجيين لا نتنقل في الأيام الأولى التي تلت الحادث إلا مجموعات سوياً خوفاً على أنفسنا من أن نكون هدفاً لردة فعل غاضبة، فقد تحولت -حينها- شقة صديقين قطريين في مدينتنا الصغيرة إلى مركز

لتجمع مجموعة من الشباب، حتى بات أكثر من عشرين شاباً في الوقت ذاته في غرفتين متجاورتين، قرابة أسبوع كامل!

التعامل مع المجهول

كنا نتعامل مع المجهول، وعندما ينعدم المنطق في الأشياء تحل البهيمية، وهو ما حدث في أعمال اصطدام الطائرات في البرجين اللذين تحولا أثراً بعد عين، وحوّلا مسار الأشياء بعد ذلك.

لكني أشهد حقاً أن النساء السعوديات كن أكثر من يعاني من ذيول سبتمبر في أميركا، وبخاصة المحجبات منهن، وأذكر أن زوجتي قابلت بضعة مرات في طريقها إلى الجامعة أو في (السوبر ماركت) أميركيين وأميركيات كانوا يتوجهون إلى السيدة المحجبة ليطمئنوا عليها وأن لا تكون هدفاً لتصرفات غير لائقة.

أزمتنا مع الأميركيين في السعودية

أعود للحديث عن أحداث سبتمبر (أيلول) 2001، وكيف عايشناها نحن السعوديين في أميركا. وأتذكر أني قرأت تصريحاً لمواطن أميركي يعمل في الرياض، بعد اندلاع أعمال الإرهاب في السعودية. قال لاري ماكفين بتاريخ 2003/3/15، وهو مدير المدرسة الأميركية الدولية: إنه بات يشعر بالحرج بسبب جنسيته الأميركية، وأن ذلك صار يدفعه كثيراً إلى إخفاء أنه أميركي. وعندما سأله بائع الشاورما في الرياض: من أين أنت؟ أجاب لاري ماكفين: "أنا من كندا"(*). وعلل ذلك بقوله: "شعرت إنني لو قلت للبائع أني أميركي، كنت سأفقد التواصل معه".

لا يشعر هذا المواطن الأميركي بالفخر، أو حتى الراحة إزاء ما يحدث في المنطقة، وعزم حكومة بلاده شن حرب على العراق، (كان ذلك قبل الحرب على العراق بخمسة أيام) مما يعمق إحساسه بالقلق لانتمائه الأميركي، وهو يقول: "أشعر بالحرج بسبب جنسيتي الأميركية، ويمكنني رؤية ما تفعله سياسة أميركا الخارجية". ويضيف ماكفين قائلاً: "من بين مجموعة أصدقائي، هناك قلة محدودة ممن تثق في أن حكومتنا تفعل الشيء الصحيح"!

ورغم قلقه وحرجه من كونه أميركياً، إلا أن لاري ماكفين أكد أنه لا يخشى على سلامته وهو في السعودية، كان يقول:

(*) نشرت الموضوع جريدة "الشرق الأوسط" في خدمة خاصة لها مقدمة من "لوس أنجليس تايمز"، يوم السبت 15 مارس (آذار) 2003، عقب اندلاع أعمال الإرهاب في السعودية.

"لا أعتقد أن عامة الناس يريدون النيل منا". ويضيف مُشدداً: "الصعب في الموضوع هو الغموض".

لقد تذكرت عندما قرأت مشاعر هذا الأميركي إزاء سلوك وسياسات أعضاء حكومته، ما كنت أعيشه أنا وأسرتي وأصدقائي عندما كنا في الولايات المتحدة خلال أحداث الحادي عشر من سبتمبر (أيلول) التي ضربت أميركا والأميركيين في مقتل!

إن سؤالاً مثل: "من أين أنت"؟ يكاد يكون مفتاح أي حوار عام في الولايات المتحدة، كما في معظم بلدان العالم. وكما كانت جنسياتنا السعودية فخراً لنا قبل 11 سبتمبر في أميركا، أصبح معظمنا يدعي بأنه من دولة أخرى غير السعودية، بعد ضرب برجي مركز التجارة العالمي، وتوجيه الاتهام إلى أسامة بن لادن، وخمسة عشر سعودياً كانوا داخل الطائرات المهاجمة!

لقد بقينا بعد الحادث في بيوتنا أياماً، خوفاً على سلامتنا، لأننا كنا نتعامل مع الحدث وقد سيطر علينا هاجس الغموض الذي تحدث عنه ماكفين.

لم نكن كسعوديين نخشى من عامة الأميركيين، لكننا كنا نخاف هذا الغموض، الذي لا ندري أمامه ما قد يحصل لنا!

كنا جميعاً نرفض اعتداءات سبتمبر، ونعتقد أنها جريمة ضد الإنسانية، لكننا لا نتصور أن مَنْ يريد الاعتداء علينا سيفتح معنا حواراً قبل الاعتداء، ليرى موقفنا الفكري من أحداث سبتمبر،

ومدى تأييدنا أو رفضنا لأسامة بن لادن وأفكاره التي تروج لقتل الأميركيين، أنّى كانوا وحيثما وُجِدوا، وبالتالي كان البعض بل معظمنا يشعر بالقلق.

وتماماً، كما حدث لبعض الأجانب، في منطقتنا إجمالا وفي السعودية خصوصاً، تعرض البعض للاعتداء، ولم يجد الآخرون سوى المعاملة الجيدة.

أذكر قصة طريفة حصلت غير مرة لأصدقائنا في أميركا. كان بعض الخليجيين يتندرون علينا نحن السعوديين، بأننا أصبحنا موضع شبهة في الولايات المتحدة، وكان لنا زميل قطري كثيراً ما كان يكرر ذلك مازحاً. كان هذا القطري وابن خاله من أقرب الأشخاص لنا، وهما من أشرتُ قبلاً إلى أنهما حولا شقتهما إلى مهجع جماعي لنحو من عشرين شاباً خليجياً، وذات مرة سألت بائعة في متجر صديقنا القطري: "من أين أنت"؟ فأجاب مزهواً بعد أن نظر إلينا نحن السعوديين: "من قطر". قالت البائعة بعفوية: "أين هي قطر؟"، فأجابها على الفور وبتلقائية دون أن يفكر: "بلد صغير يقع بجانب السعودية.

فهرنهایت 9/11

شاهدت فيلم المخرج الأميركي الشهير (مايكل مور) "فهرنهايت 9/11" ثلاث مرات أثناء عرضه على شاشات السينما في دبي. أول مرة كنت وحدي، وبخاصة بعد الضجة الإعلامية التي رافقت الفيلم. مرة ثانية مع صديق. وثالثة لأني أردت أن أكتب عن الفيلم. وقد فعلت ذلك مرتين، بعيد عرض الفيلم في أسبوعه الأول.

حرص (مور) بشكل موجه أن يظهر أن السعوديين استطاعوا أن يتنفذوا في أروقة صناعة القرار في واشنطن، لدرجة جعلنا فيها نسير الأميركيين كما يفعل الأراجوز بكراته.

أستطيع القول أنني خرجت من صالات العرض في المرات الثلاث وأنا منتشٍ بسعوديتي، فنحن إن فعلنا نصف ما قاله عنا (مور)، فقد فعلنا بقطب العالم الأفاعيل.

كان المخرج (مور) من الخضر، أو أخضر سابق، في صفوف نادٍ يروج للديمقراطيين كي لا يربح الجمهوريون. أراد القول إن السعوديين بأموالهم استطاعوا أن يتنفذوا في كواليس صناعة القرار الأميركي. وأعود لأقول ثانية: لو كان ربع هذا الوصف صحيحاً، فعز الله أننا ما قصرنا. إذ على الرغم من الثراء، الذي أنعم الله به علينا كدولة، فإننا لسنا الدولة الوحيدة الثرية في العالم. لكن أحداً لم يستطع أن يفعل كما فعل هؤلاء البدو الذين ما يزال انطباع معظم الغربيين عنهم لا يتعدى الصورة النمطية الجاهزة: جمل وطعس، وكم برميل نفط مخبأ تحت وسائدنا حيث نرقد في خيامنا!

الفيلم سبقت ضجته عرضه في الولايات المتحدة، وامتدت الضجة إلى العالم، ككثير من الأشياء التي يُشعل فتيلها في واشنطن وما جاورها ثم تحترق في أماكن قصية من العالم.

إعلان الفيلم يُظهر الرئيس الأميركي (جورج دبليو بوش) وقد أمسك بيد (مايكل مور) وهما يسيران في حديقة خضراء، وبدا خلفهما البيت الأبيض. اختار (مور) اسم فهرنهايت للدلالة على درجات الحرارة المرتفعة بعد غليان الحادي عشر من سبتمبر، وهو من خلال فيلمه يسعى إلى تأكيد حقيقة واحدة هي أن الرئيس (بوش) لم يفز في ولايته الرئاسية الأولى بفارق الأصوات عن منافسه الديمقراطي (آل غور)، بل فاز بالتزوير، وأن أصواتاً تم تغافلها كانت لصالح غور ولم تحتسب. ثم ينتقل الفيلم إلى عدم كفاءة (بوش) شخصياً لمنصب الرئاسة من جهة، متحدثاً عن صلات وثيقة له بعالم المال والنفط، وأخرى مالية وتجارية ببعض أشقاء أسامة بن لادن جعلت (بوش) يبتعد عن متابعة ابن لادن بشكل صارم، ويتشاغل عنها بحرب مفتعلة ضد العراق، التي لم تقتل مواطناً أميركياً واحداً، ولم تشكل أي تهديد ضد واشنطن، كما يرى (مور)!

الثورة التي أحدثها "فهرنهايت 9/11" ليس سببها فقط أنه فيلم ينتقد بقسوة رئيساً في سدة الرئاسة، بل لأنه فيلم وثائقي خلط فيه كاتبه ومخرجه (مايكل مور) التوثيق بالسخرية، والخاص بالعام، والموضوعية بالإيدولوجيا السياسية، وسخّر ذلك كله في قالب

سينمائي مؤثر، وفي شكل موّجه ومنحاز لتحقيق غاية رئيسة هي إسقاط (بوش) في الاستحقاق الانتخابي التالي، وهو ما لم يحدث!

(مايكل مور) أراد في أجزاء كبيرة من الفيلم أن يسيء لبوش من جهة وللسعودية من جهة أخرى بسبب ارتكاب ١٥ من مواطنيها من بين 19 جريمة 11 سبتمبر، بالإضافة إلى الحديث عن علاقة وثيقة بين (آل بوش) والمسؤولين السعوديين وبخاصة السفير السعودي السابق في واشنطن الأمير بندر بن سلطان، متحدثاً عن الاستثمارات السعودية في أميركا تارة، وفاعلية المال والنفوذ السعودي في التأثير على الشركات النفطية تارة أخرى، لكنه نسي أن قَدّم لنا كسعوديين شهادة بأدوارنا المؤثرة والفاعلة في أوساط القرار السياسي والمالي في واشنطن، وهي منزلة انبطح آخرون، ليحققوا بعضها ولم يستطيعوا.

وأرجو أن لا ينسى العم (مايكل مور) خلال استبساله في الدفاع عن الديمقراطيين في الانتخابات المقبلة، أن أصحابه الديمقراطيين يرتبطون بالرياض والمسؤولين فيها بعلاقات مميزة ولافتة، بدلالة ما كتبه الرئيس كلينتون في مذكراته الأخيرة من أحاديث إيجابية عن السعودية وقادتها، خلافاً لكون كلينتون زار السعودية بعد 11 سبتمبر محاضراً -حتى الآن- مرتين، مثنياً عليها وعلى مبادرات زعمائها.

الغباء الأميركي!

ثمة بعض التصورات النمطية السائدة التي نعممها على المناطق أو الشعوب أو نحو ذلك. استحضرت من ذلك التصور السائد أن الشعب الأميركي شعب غبي. أذكر أننا كنا نتبادل هذه الجملة كطلبة من العرب المغتربين يوم كنا ندرس في الولايات المتحدة. بعضنا يكون لطيفاً فيتبع ذلك بأنه شعب طيب، والبعض الآخر يكتفي بوصفه بأنه شعب ساذج!

هل هذا صحيح؟

غالباً ما تنشأ هذه الفرضية بناءً على كون الأميركيين شعب لا يهتم بتفاصيل العالم البعيد عنه!

معلومات الأميركيين العامة ضعيفة جداً، والمواطن الأميركي لا يهتم إلا بوسائل تخفيض الضرائب، وبفريقه المفضل سواء كان مهتماً بكرة القدم الأميركية أو كرة السلة أو البيسبول.

الولايات المتحدة قارة كاملة، وعدد سكانها يشكل 5 في المائة من سكان العالم، وتأتي إحدى ولايات أميركا في المركز الخامس في ترتيب أغنى دول العالم، وولاية أميركية ثانية في المركز السابع بين الدول أيضاً، بينما تأتي الولايات المتحدة عل رأس دول العالم إنتاجاً وغنى.

يعيش بعض الأميركيين كل حياتهم داخل الولايات المتحدة، ولو قضى أحدهم كل إجازة في منتزه أو مزار أو ولاية لما استطاع أن

يمر بكل ما في بلاده. وهذا سبب من أسباب ضحالة معلوماتهم عن العالم الخارجي.

إذا ما قارنا بين ما يحدث بالنسبة للمواطن العربي ونظيره الأميركي، فإن بني جلدتنا يتنفسون السياسة، قبل أن يشبوا عن الطوق، فالصراع الذي تعيشه المنطقة سياسياً ودينياً وفكرياً وثقافياً، يجعل الإنسان العربي -كما يطلق عليه البعض- حيواناً سياسياً.

القصة ليست أن الأميركي غبي بل هي أنه ليس مثل نظيره العربي معجوناً بما نصطلح على تسميته محلياً بـ(اللكاعة)، وهي ليست الذكاء الفطري، إنما الذكاء المشوب بشيء من الخبث.

يقضي المواطن الأميركي حياته في جمع قوت يومه. ولا تستغرب أن تجد في إعلانات بعض البنوك أن من مميزات بطاقتهم الائتمانية أنك تستطيع من خلالها أن توفر بعض السنتات، وتدخر من خلالها شهرياً بضعة دولارات!

أميركا..
التي أحببت!

كتب سيد قطب: "أميركا التي رأيت". وتابعه الشيخ عايض القرني في شريط بالعنوان نفسه، ثم أصدره، فيما بعد، كتاباً!

أقول: كان الكاتبان يحاولان التعاطي مع الشأن الأميركي بشكل حيادي، على الأقل من خلال العنوان. وإن تطرفا -كما أعتقد- في المضمون إلا أنهما كانا يقدمان مادةً صحافية تبدو مثيرة من خلال العنوان نفسه، وإن اختلفا في التفاصيل بدافع مذهبي أو عملي أو نحوهما!

لماذا اخترت: أميركا التي أحببت؟ مع الأخذ في الاعتبار أن المزاج الشعبي، وبالذات هنا في السعودية، ضد هذا التوجه فكيف إذا كان عنواناً؟!. وأنا عندما أقتنع بشيء لا أحب أن أكون إلا أنا. لا أحب أن أكون سوى ذلك. وإن أحببت الآخرين مهما كانوا قريبين، أو حتى مؤثرين!

غادرت نيويورك بعد نحو شهر قضيته في ربوع الولايات المتحدة. صحيح أن الرحلة كانت بدافع مرافقة والدتي المريضة، أرجو أن يمن الله عليّ بشفائها وأن يُقر عيني برؤيتها طيبة كما هي على الدوام، لكن ذلك لا يعني أني كنت استكشف أميركا من جديد، بعد أن تركتها في صيف العام 2002، وقد قضيت فيها أكثر من عامين بينهما أحداث الحادي عشر من سبتمبر (أيلول)، تلك التي غيرت وجه أميركا، كما غيرت وجه العالم كله.

أذكر أننا كنا نتسامر عندما كنا طلاباً، بعد أن نعود إلى بلادنا في إجازاتنا، فيذكر معظمنا أنه كان يتحاشى بعد أيام

وصوله الأولى حديثه عن الناس في أميركا، والنظام فيها، وأسلوب العيش، وطريقة الحياة.

أتدرون لماذا؟

لأنه يتحاشى أن يتندر عليه قومه وبني جلدته من الأسلوب الجديد في سلوكه، بمجرد قضاء بضع سنوات في أميركا، أو حتى بضعة أشهر. بعض هؤلاء "العيارين" يرددون بالمحلية الدراجة: "الله أكبر! ما أمداك يا فلان تروح لك كم شهر لهذه الديار، حتى جئتنا مبشراً بعاداتهم وطرائقهم"!

لا شيء آلم من حديث كهذا على المغترب العائد إلى بلاده.

بعض الناقدين يغمز بشكل مباشر أو غير مباشر، من قناة تأثير الحديث عن أميركا على دين المتحدث وأصله وفصله وعاداته وطبائعه. وربما كان صريحاً أكثر من اللازم فقال: "أرسلناك لتحصل على علمهم، لا لتتطبع بعاداتهم"!

بعد الحادي عشر من سبتمبر باتت القضية أكثر حدة، فموجة العداء لكل ما هو أميركي في تنامٍ، تغذيها حماقة السياسة الأميركية الخارجية، ووسائل الإعلام التي تخاطب غرائز رجل الشارع وتدغدغ عواطفه. وهذا ما يجد قبولاً في مجتمعات تضعف فيها التنمية، وينحسر فيها تصاعد نمو الاقتصاد والمعرفة.

كتبت عن مشاهداتي في أميركا، وعلق بعض القراء الظرفاء بأنه يتمنى أن يرى لي مقالاً لا أذكر فيه أميركا، أو لا أتحدث عنها.

أعجبني التعليق. الظرف محبب، ولو كان ضدك. أقولها وأنا اختلف معه. كأن صاحبنا يراني أتحدث عن سيراليون، أو جزر القمر، أو نيبال، أو حتى جزر الكناري، مع احترامي للجميع!

ربما كان يريدني أن أكون في الولايات المتحدة، وأكتب عن مشاهداتي في روسيا، أو زياراتي إلى الصين، أو حتى وجهة نظري في موقف فرنسا من سورية إزاء اغتيال الحريري إثر تنحي ميليس عن التحقيق في الملف، في الوقت ذاته الذي يوشك فيه رئيس الوزراء الإسرائيلي (السابق) أرييل شارون على الهلاك!

لست أبشِّر بأفكار أميركية، لكني أنقل مشاهداتي، وأعلم أن بضاعتي، التي أعرضها على قارعة هذه الأسطر، معرضة للقبول والرفض، وهذه أبسط حقوق القراء عليَّ وعلى كل كاتب. أعتقد، كما يعتقد الكثيرون، أن الولايات المتحدة هي أهم دولة في العالم، ليس بقوتها العسكرية والاقتصادية والسياسية فقط، بل بتعدديتها العرقية والفكرية والاجتماعية، وبنظامها الداخلي، وأسلوب العيش فيها، تلك التي يجد من يعاقرها، أنه لا مثيل لها في الشرق ولا في الغرب.

ما زلت أذكر أن صديقاً قال لي وأنا استعد للسفر إلى أميركا: ستجد يا تركي فرقاً بين أميركا وأوروبا بما يعادل مئة سنة تقدماً لصالح أميركا، على الأقل في الخدمات!

ربما كان في حديثه شيء من المبالغة، غير أن أصل الفكرة صحيح... وقد لمستُ هذا بيدي الاثنتين هاتين، اللتين أخط بهما هذه السطور!

لم يكن هناك موضع في العالم تطلب فيه وأنت في شقتك أن تزود بخدمة الهاتف الثابت عبر هاتفك الجوال، فتستغرق العملية نحواً من بضع ساعات، لتجد نفسك تتحدث بالهاتف من بيتك!

هؤلاء هم الأميركيون في معظمهم، طيبون، متسامحون، يحبون الآخرين، ويقدرون ثقافاتهم وعاداتهم وقبل ذلك، دياناتهم.

أرسل إلي الزميل عبدالمجيد الطاسان وهو سعودي يدرس في ولاية ميسوري مؤكداً أن سكن الجامعة وفّر له مقراً (غرفة) لأداء صلاته. يقول:" أول ماوصلت وفروا لي السكن بالجامعة وكانوا معي قمة في التعامل مع وجود عائق اللغة نوعاً ما، وعندما أخذوا بنا جولة حول الجامعة قالت لنا المشرفة: هناك مركز إسلامي قريب من الجامعة وبه مسجد سأريكم إياه غير أنهم وفروا لنا غرفة نصلي فيها وقت الدراسة في الجامعة".

بعيداً عن الزيف!

أعود للحديث عن أميركا التي أحببت، وأقول لكم إنني اخترت عنوان أميركا التي أحببت، ولم أقل التي رأيت، حتى لا أزيف عليكم، ولا أمرر رأيي بشكل غير مباشر.

في بدايات العام 2006 كانت والدتي شفاها الله، تتلقى جرعة من (الكيموثربي) في سبيل مكافحة السرطان اللعين في نيويورك.

كنت أرافقها، أنا وأخي وأخواتي، عندما حل دورها، كانت الممرضة تعاملها بحنو، ربما لا نستطيع -نحن أبناءها وبناتها- أن نسديه إلى حلوة اللبن، التي جاعت لنأكل، وسهرت لننام، وتعبت لنرتاح، وقلقت لنطمئن، وخافت لنأمن!

بينما وصلت الممرضة الجرعة بصدر والدتي، وتتابع وصول الجرعات، حتى أحست أمي بشيء من البرد عبر قشعريرة هادئة سكبتها في الأرجاء.

وقد كان الوقت شتاءً نيويوركياً قارصاً. وقفنا أنا وإخوتي إلى جانب أمنا، نحسُ بإحساسها بالبرد، ونتمنى لو تحولنا كتلاً دافئة لنغشاها، لكننا لسنا كذلك!

وبينما الوجوم يطرقنا والقلق سيد الموقف، جاءت ملاك الرحمة بخمار ساخن، وكأنما أخرجته من مدفأة وألقته بسكينة على والدتي.

أحسسنا بالدفء ينساب في دواخلنا، فرفعت أمي دعوة خالصة للممرضة.

ويوم شعرت والدتي بشيئ من الاستغراب يخيم علينا، قالت: سأحدثكم عن قصة طريفة: كان رجل سبعيني من أقاربنا، وهو رجل صالح، يوشك أن يقضي معظم يومه في المسجد، قد أصيب يوماً بحمى. كان البرد يتسلل إليه من كل طرف من أطرافه، وقد انكمش فازداد صغر جسمه الأصلي ضموراً.

وبمجرد ما ألقت الممرضة عليه بغطاء كساه بالدفء، وأبناؤه ينظرون ويترقبون، حتى قال ساخراً: والله إن هذه أطيب منكم! مخاطباً أبناءه! كان الرجل مشهوراً بالدعابة وخفة الدم. وكانت الموجة عارمة في التحذير من كفر الممرضات في المستشفيات آنذاك!

كانت ردة فعل الرجل المسن طبيعية، وهو إذ ذاك لا يصدر أحكاماً، لكنه يتفاعل بشكل طبيعي وإنساني مع مَنْ أحسن إليه، وأسدى إليه معروفاً، وسكب عليه فضلاً وعطاءً.

اللهم دمِّر أميركا!

قال لي أحدهم إن هناك امرأة كانت تصلي التراويح ودعا الإمام على أميركا: "اللهم دمرهم وزلزلهم"، فكانت تُؤَمِن كباقي المُصليات وراء الإمام الداعي، فحدث أن ذهب ابنها لأميركا للدراسة بعد ذلك بزمن، وعاود الإمام الدعاء نفسه فأنزلت يديها وقالت: "اللهم احفظ ولدي".

يجرني الحديث عن قصة والدتي والممرضة، وما جاء من نبأ قصة المسن الساخر، في فصل سابق، إلى الحديث عن المستشفيات وأميركا فيما يشبه إعادة لشريط الذكريات، فأعود ست سنوات إلى الوراء. يوم وصلت إلى الولايات المتحدة أنا وزوجتي وأطفالي.. بعد أسبوعين قضيناهما في فندق، انتقلت إلى شقة مستأجرة، اضطررنا للنوم على أرضها قبيل تأثيثها، وفي هذه الأثناء، أصابتني آلام مبرحة، زرت الطبيب على إثرها، فقرر إجراء جراحة عاجلة.

كانت لغتي الإنجليزية معاقة آنذاك، واستخدم الطبيب مترجماً عربياً عندما علم أني لا أحيط بما يقوله علماً.

قلت له إن إجراء العملية صعب جداً، وأنا في مدينة لا أعرف فيها أحداً، وزوجتي وأطفالي في شقة ليس فيها إلا سجادة وثلاجة وغلاية ماء!

وإذا كنت أنا لا أدري كيف أصرف أموري حينها، فمن باب أولى أن تكون زوجتي كذلك! أقول هذا كأمر واقع وليس بقصد العنصرية ضد النساء أو الحط من قدراتهن!

قال لي الطبيب: لا تقلق، سنجري لك جراحة تدخل المستشفى وتغادره في ذات اليوم.

أصدقكم القول: كنت خائفاً. كنت خائفاً من الجراحة رغم أنها بسيطة، لكن إحساسي أن أدخل حالة كهذه وحيداً، كان باعثاً على شيء من القلق، وبخاصة وأني رجل اجتماعي، آلف وأحسبُني أؤلف، فلا أقضي حاجة دون أن أشرك فيها صديقاً عن طيب خاطر منه ومني. فكيف أدخل مستشفى أجري فيه جراحة في بلاد الغربة وحيداً؟!

اضطرت زوجتي - آنذاك - أن تبقى في بيتها لترعى ابننا وابنتنا حينها، وقد كان للابن أربع سنين وللبنت سنة ونصف فقط.

وقد زاد من خوفي أن المستشفى الذي قصدته كان مستشفى مسيحياً، تحيط الصلبان بممراته وأزقته وجدرانه. بل عندما ذهبت إلى موظفة التسجيل للإدلاء ببياناتي سألتني عن ديني، وهو سؤال غريب في الولايات المتحدة، فأجبتها بأني مسلم، وكنتُ أرقب علامات وجهها، فأومأت برأسها وذهبت أصابعها إلى لوحة مفاتيح الكومبيوتر، ولم يرمش لها جفنٌ استغراباً أو استنكاراً أو نحوه!

علمت بعدها أن راهبة مسيحية هي التي أسست المستشفى، ولذلك بقيت الكنيسة تهتم به وتوليه رعايتها واهتمامها.

أتدرون ما خفف عني قلقي واضطرابي؟!

لم يكن قريباً يواسيني، ولا صديقاً يؤانسني ويقتل وحدتي ويساعدني على قضاء الوقت، ويخفف بحضوره من الوساوس التي تداهمني؟! كلا.

بل أنست بتعامل الممرضين والممرضات، فقد كان تعاملاً إنسانياً لا تشوبه شائبة التعصب والتعالي.

أقول كل ذلك، وأنا أستحضر قول الحق تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

قبل... البنج!

قبل أن أدلف إلى غرفة العمليات، كان طبيب البنج، وهو أميركي من أُصول لاتينية، ينشر الفرح والسرور في الأرجاء. كانت نكاته وسخريته تملأ المكان من أجل التخفيف عني. تحدث لي عن المفارقات في تباين الثقافات الاجتماعية بين ما تعلمه من والديه، وما يعايش في حياته اليومية ومع أصدقائه وصديقاته، ما جعلني أضحك بأعلى صوتي، مع أن الضحك كان صعباً في حالة الترقب تلك. كنت أضحك مع أني لا أعرف حينها أكثر من نصف كلامه، وهو ما اكتشفه بذكائه فأصبح يؤديه مسرحياً بحركات يده ووجهه. وأذكر أن صدى ضحكاتي وبقايا لكنته اللاتينية هما آخر ما أذكره قبل الاستسلام للبنج.

عادت لي الذاكرة بأنين كنتُ أصدره بعد استيقاظي من البنج إثر خروجي من غرفة العمليات، وقد أعمل الجراح مبضعه في جسدي.

كان أول إحساس تبينته حينها جفاف حلقي، ونظرات أستلها عبر ما انفتح من عينيّ، ومع أولى اللحظات وجدت يداً حانية تمسح على جبيني وساعدي وتطمئنني بلسان الحال، وإلا فلم أستطع أن أستبين لها لغة!

مرّت اللحظات والدقائق وأنا استعيدُ وعيي وعقلي تدريجياً، وأكتشف الألم أكثر فأكثر مع زوال أثر البنج.. وكانت الممرضات مستعدات للتفاعل مع آلامي، كما لو كن هن اللاتي يتألمن.

كان من الممكن التعود على سماع مثل هذا الأنين، والشكوى من الألم، كما يفعل كثيرون ممن يتعاطون يومياً مع الآلام، وتكرارها يلغي لديهم الإحساس بالتعاطف، دون استحضار أن من يكابدها إنسان في النهاية.. لكنهم يملون!

ترى لمَ ذلك؟!

ألإنسانيتهم؟! أم لمهنيتهم العالية؟! أم لأنهم يضعون أنفسهم محل المرضى والمتألمين والمصابين؟!

لستُ أدري!

لكنني كنتُ منبهراً مما أرى، ممتناً أشد الامتنان لما لقيته من عناية واهتمام! لو لم أكن كذلك، للُمت نفسي وقرعتها، ووبختها، فأنا حينها سأكون جاحداً وقد علمتني ثقافتي وبلدي ومجتمعي أن الجاحدين قليلاً مروءة عُدَماء وفاء، وهذا سلوك لا يجدر بنا أن نعاقره!

وحرقنا العلم الأميركي!

قال لي صديق أميركي من أصل عربي إنه خرج مع ابنه الذي لم يتجاوز ثلاثة عشر ربيعاً في مظاهرة تمت في إحدى مدن الولايات المتحدة لصالح القضية الفلسطينية، وأن الأمور كانت طبيعية حتى استبد الحماس بأحد الإخوة المتظاهرين، فعمد إلى علم أميركي وحرقه في النار! يواصل صاحبي روايته: آلمتني الحادثة، لكني كنت أغض الطرف عنها عمداً، نبهني ابني إلى أن هذا التصرف لا يجدرُ فعله بالعَلم الذي ننتمي إلى جنسيته، فصرفتُ ولدي عمّا قد يوقعنا في صراع الدهماء.

تذكرت على الفور بعد أن استمعت القصة إمام الجامع الذي كنا نتوجه لصلاة الجمعة فيه عندما كنت أدرس في شمال الغرب الأميركي.

كان صاحبنا أميركيا من أصل فلسطيني، وكان فيما يظهر لي لا يرى صحة الخطبة إلاَ إذا لعن اليهود والنصارى من فوق منبر جمعة في الولايات المتحدة، جرياً على عادة أسبوعية.

كنت أرى أميركيين أصليين دخلوا إلى الإسلام تواً، وأسرح متأملاً في وقع هذا اللعن عليهم، وهو يصيب أمهاتهم وآباءهم وربما زوجاتهم وأصحابهم وزملاءهم في الحياة والعمل!

مهاجمين... أم مدافعين؟!

بعد أشهر قليلة، كانت أحداث الحادي عشر من سبتمبر المشؤومة قد وقعت.

اجتمعت إلى مجموعة من الطلبة الخليجيين في المدينة التي كنا ندرس فيها، وتناقشنا فيما يمكننا أن نعمله، خشية من آثار ردة فعل الأميركيين المصابين بطعنة هجمات سبتمبر، ولو كانت الضربة أصابت الساحل الشرقي ونحن في الساحل الأميركي الغربي على مسافة خمس ساعات في الطائرة!

اتفقنا على ألا نسير فرادى، وتحدثنا بترقب عن الجمعة المنتظرة، وهي أول جمعة بعد الأحداث.

عندما وصل الشباب العرب إلى شارع المسجد، كان تسارع دقات قلوبهم أشبه ما يكون بركض عدّاء نشيط، وازداد الخفقان، بعد أن رأوا أشكال مجموعات أميركية تحيط بالمسجد! اقتربوا بوجل، فاكتشفوا أن هذه المجاميع تشكلت من منظمات مسيحية، ومن "هيبيز"، حماية للمصلين العرب والمسلمين من أي هجمات قد تنشأ كردة فعل من الأميركيين تجاه "غزوة مانهاتن"!

كان المشهد ميلودرامياً، فالذين كان إمامنا يلعنهم كل جمعة، ويسأل الله أن يبددهم وأن ييتم أطفالهم ويرمل نساءهم، وإذا استبد به الحماس دعا الله أن ييبس الدماء في عروقهم، هم ذاتهم الذين جاؤوا ليكونوا درعاً بشرياً لحمايتنا من أجل صلاتنا في سكينة وأمان في مدينتهم!

أذكر أن معظم الحاضرين للصلاة كانوا يؤمنون بشكل ببغائي على دعوات الإمام التي كانت تغيظني، وأعترف أني كنت أجبنُ عن

الاعتراض عليها بشكل علني، وأكتفي بحوار الغرف المغلقة مع بعض الزملاء، لكني حمدت الله كثيراً أنه لم يستجب لدعوات إمامنا وتأميننا ويفعل الأفاعيل بهؤلاء، إذ إن إجابة دعوة كهذه كانت كفيلة بأن نُحرم من هذا الصدر البشري الذي جعلنا نصلي ونحن مطمئنون في عبادتنا.

استمر الحضور الأميركي، وازداد إليه حضور حاكم الولاية، مدة خمسة أسابيع أو ستة، في كل جمعة.

وقد كان الله رحيماً بنا إذ لم يُجَمِّد الدماء في عروقهم أو يلعنهم أو حتى يُيَتِم أطفالهم.

ما أحلم الله بنا، وما أحلم الكثير من الثقافات على نزقنا، وشوفينيتنا، وإحساسنا الطاغي بأننا وليس أبناء عمومتنا، شعب الله المختار، وما نحن -والله- إلا شعب الله المحتار!

أميركا هي السبب!

باتت أميركا، -على الرغم من أخطائها التي لا تغتفر وبخاصة في سياستها الخارجية- مشجباً نعلق عليه أفراداً وجماعات في العالم العربي أخطاءنا، ونبرر به مشكلاتنا وتقصيرنا في أمرنا.

فيتغيب 69 في المئة من موظفي الحكومة في السعودية دون عذر، طبقا لدراسة علمية أجراها الدكتوران صلاح المعيوف، ومحمد المهنا لمعهد الادارة العامة، شملت 181 جهازاً حكومياً في مناطق المملكة المختلفة.

وكشفت الدراسة التي نشرتها جريدة "المدينة"(*) السعودية، أن نصف موظفي الحكومة يتأخرون عن أعمالهم. وقال أفراد عينة الدراسة، الذين بلغ عددهم 2365 موظفاً، إن الإجراءات الإدارية التي تتخذ بشأن المتسيبين غير مجدية، وتتركز على الجانب الشفهي فقط.

أما مغادرة الدوام قبل انتهاء ساعات العمل فظهر أن سبعة في المئة يغادرون قبل ثلاث ساعات من نهاية الدوام، فيما يغادر نحو 12 في المئة منهم قبل أكثر من ثلاث ساعات، ويغادر أكثر من 21 في المئة قبل أقل من ساعتين. فيما النسبة العظمى وهم 59 في المئة فهم، ولله الحمد، حريصون على مصلحة الوطن، من خلال التزامهم بالعمل، لأنهم يغادرون قبل ساعة واحدة فقط من انتهاء ساعات الدوام الرسمي.

(*) انظر جريدة "المدينة" يوم الأحد الموافق 2003/12/14 .

وخلال الدوام يخرج 41 في المئة لأقل من ساعة ثم يعودون إلى العمل، فيما 33 في المئة يخرجون من العمل مدة تتفاوت بين ساعة وثلاث ساعات. أما الذين يخرجون لثلاث ساعات فأكثر فمن فضل الله علينا أن نسبتهم لا تتجاوز 26 في المئة.

اصطلحت الصحيفة على تسمية المتسيبين بـ(المزوغين)، وأذكر أننا كنا نسميهم أيام الدراسة بـ (الفاركين)، وهؤلاء قالت الدراسة إن نسبتهم تبلغ 54 في المئة.

أكد الباحثان، المعيوف والمهنا، من خلال دراستهما التي شملت مناطق المملكة كافة عدم انتظام الموظفين في الحضور إلى العمل صباحاً، والخروج من العمل والعودة إليه قبل نهاية الدوام، مغادرة العمل قبل نهاية الوقت المحدد، والغياب كلياً عن العمل.

كان موضوع الدراسة عنواناً رئيساً لعدد صحيفة "المدينة" السعودية يوم القمة الخليجية الـ 24، التي عقدت في الكويت. والسعودية التي شملتها دراسة جريئة من هذا النوع، تمثل نموذجاً لأداء الموظفين في دول الخليج العربية خصوصاً، والدول العربية عموماً.

وفيما يتحدث الغرب عن مشكلة العاطلين عن العمل (البطالة)، نتكلم نحن عن مشكلة العاطلين... أثناء العمل!

التفت إليَّ الزميل عثمان العمير، الذي كان يقرأ الصحيفة يوم كنا مترافقين في رحلة سفر، وقال مشيراً إلى الموضوع: "هذه مؤامرة أميركية، تدعو إلى تخلفنا إداريا"!

أفضل شيء في أميركا!

يحضرني في الحديث عن أميركا المشجب، ما كتبه الدكتور عبدالله الغذامي في كتابة "رحلة إلى جمهورية النظرية... مقاربات لقراءة وجه أميركا الثقافي"، تحت عنوان (السيدة أميركا)، عندما قال:"إن كان بريخت يقول: أفضل شيء في أميركا هو أننا نفهمها. فإنني أقول: إن أفضل شيء في أميركا هو أننا نسيء فهمها، ولا نخاف. وأننا نستطيع أن ننتقدها، ولا نخاف. ونستطيع أن ننسب إليها شرور العالم، ولا نخاف. ونستطيع أن نطالبها بكل دواعي الضمير والأخلاق والمسؤولية التاريخية والحضارية، ولا نخاف.

أفضل ما في أميركا وأجمل ما فيها أنها طعام شهي لكل من أراد أن يأكل لحم أخيه، من دون أن يكرهه الناس من حوله ومن أمامه"(*).

(*) الصفحة 61-62 .